سلام إبراهيم

قبلة الصباح

الأعمال الكاملة

11

قصص

ألف ياء
Alf Yaa

قبلة الصباح

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المؤلف: سلام إبراهيم
الكتاب: قبلة الصباح (قصص)ـ الأعمال الكاملة 11
صدرت النسخة الرقمية: حزيران/يونيو 2026
الطبعة الأولى 2023، دار الدراويش ـ بلغاريا

- **الناشـر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa»ناشـرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأعمال الكاملة 11

سلام إبراهيم

قبلة الصباح

قصص

منشورات «الآن»

منشورات «دار الأمان»

إهداء

إلى ناهده القزمرية

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «دار الآداب»

الفهرست

منفيون.....9
1 ـ جارتي الدنماركية "لينا".....11
2 ـ قبلة الصباح.....21
3- زوج يحلم.....31
4- تِظلْ الروحْ تِنْحَبْ.....37
5- شبح الوحدة.....49
6- زوجات الأدباء.....53
7- غدر الصديق.....57
8- بابا..اسكتْ.....63
9- ما زلتُ يا صديقي.....67
10- موت شاعر.....77
11- حقد الشاعر.....85
12- الشيوعي القذر.....89
13- حفيدتي.....95
14- حفل حب عائلي.....97
15- الأحد يجلس جواري.....101
16- كم واحد؟.....123
17- غيرة.....125
جنود وثوار.....133
1 ـ الله والحرب.....135
2 ـ ذاكر أحباب.....139
3 ـ حمود الخياط.....145

4 ـ مغامرات جندي.....155
5 ـ في هدوء الجبهة.....163
6 ـ لَحم حَارْ.....167
7 ـ تشفي.....171
8 ـ عرس رفيق.....177
9 ـ رفيق مهضوم.....183
10- حدث في الفجر.....185
11- المُربي.....189
12- الدخول إلى الجحيم.....197
13- نوم.....205
14- غفه رسمك.....209
شعراء وعشاق.....211
1 ـ ندم.....213
2- على الرصيف.....217
3- حسنية.....221
4- نهر الديوانية.....225
5- الجمال يوجع.....231
6- حيطان المحبة.....237
7 ـ أرسمْ.. أرسمْ 245
8 ـ سِبْحَة علي بن أبي طالب.....251
9- الجزدان السفلي.....257
10- انتقام.....263
11- أول باب.....269
12- لا تشوه ذكرياتك.....279
13- قلب الشاعر.....283

منفيون

منشورات «الأيام»

منشورات «الأيام»

1. جارتي الدنماركية "لينا"

زارتنا لينا جارتنا الدنماركية الجميلة التي تربطنا بها علاقة تميز العلاقات في القرى الدنماركية القريبة من المدن، تحس أنها قريبة لك، تفضي لك بكل ما يشغل نفسها، هذا ما كانت تفعله، وبعد تأملٍ عميق بالأمر أدركت أنها تفعل ذلك، ليس هي فحسب بل بقية الجارات، كوننا الأجانب الوحيدين في المنطقة الذين ستموت القصة ولا تنتشر في القرية التي وجدتها لا تختلف كثيرا عن بيئاتنا المغلقة إلا بأن الخبر يبقى بحدود الخبر

دون أي تداعيات اجتماعية.

كنت أشرب كشأني كل يوم، شاركتني بكأس نبيذ، لحقته باثنتين فانحلَّتْ عقدة لسانها وبدأت تشكو من رتابة العلاقة الزوجية، فتجسد أثناء حديثها وجه زوجها الطيب المسكين الحار أمامي فقدرتُ أنها ستخرجه من حياتها قريباً.

اشتبكتْ في حوارٍ مع زوجتي الحريصة على لُحمة العائلة، وأبدتْ دهشتها فزوجها شخص مرح عملي شغول يعتني بأولادها عناية شديدة، كنتُ أنصت للحوار التقليدي حول الوفاء بالعلاقة الذي تؤكد زوجتي عليه منسرحاً إلى حفلةِ رأس السنة المنصرمة التي نجحتُ في صيفها بجلب ابننا الكبير من العراق والذي تركناه بعمر ثلاث سنين، وأصبح في أوج المراهقة. ليلة رأس السنة تلك خرجنا من بيتنا لحظة تواري آخر ثانية من العام لنحتفل مع الجيران، فقادنا زوجها الطيب، القصير القامة، الحار الذي يهب لمساعدة أي جار، فارداً ذراعيه ليحيط بنا ويدخلنا حديقة بيتهم المنتشرة فيها أضواء الزينة، فالصالة التي رتبت لتكون حلبة رقص، وعلى منضدة في طرفها صفت أنواع المشروبات، ويسكي، جن، فودكا، نبيذ، بيرة وأنواع المزات، اندمجتُ راقصاً مع الضيوف على أنوار الصالة الخافتةِ، كنت قد شربت كثيراً كعادتي في كل حفل، أشرب وأضحك وأرقص حتى أسقط مثل ميتٍ في النوم ولا أدري أين، وكان ذلك يزعج زوجتي جدا، عادة لم أكف عنها قط. انخرطتُ أتطوى وأتلوى على أيقاع الموسيقى تاركاً جسدي يتناغم معها، فانفردتُ ككل حفلٍ صرتُ وسط الحلقة التي أحاطتني وأنا أقفز مثل مجنون وأصرخ وأميل وأهتز إلى أن احتوتني زوجتي بين ذراعيها

وكنتُ غارقا بنضحي قبلتني وهمست:

- اهدأ.. سلام اهدأ!

- من أين يأتي الهدوء والكل سكارى مبتهجون بقدوم عام جديد، يوشكون على الطيران فرحاً، ولا يسعهم الجسد الذي جننه الخمر وفكرة الأيام.

في صخب الحفل لا أدري أين اختفت زوجتي لأجد نفسي بين ذراعي امرأة أخرى لها رائحة مختلفة أقصر قامة وأكثر جنوناً تصرخ وتتأوه وتمسح جسدها بجسدي بطريقةٍ طيّرتْ السكرة فأولادي الثلاثة حولي وزوجتي والكل يعرف بعض. أمعنتْ وشبتْ حتى قطفت شفتي وخلفها رأيت أبنتي الصغيرة بنت الثمانية أعوام تقفز من كرسيها وتهزُّ ً بيديها وهي تردّد بالدنماركية:

- يا إلهي.. يا إلهي.. ماذا يفعل أبي، ماذا يفعل أبي؟

سمعي موزع بين بنتي المنتفضة وهمس المرأة غريبة الرائحة في أذني، تلحس وتهمس:

- أحبك.. أحبك وما تحس بيّ!

سأعرف من هي عقب انفجار الوضع، كانت أخت زوج جارتنا "لينا" مربية أطفال أصادفها صبيحة كل يوم منذ خمس سنوات حينما أوصل ولدي الصغير إلى بيت مربيته المجاور لبيتها. كنا نتبادل تحية الصباح الودود المصحوبة بابتسامة دنماركية تبدو وادعة بغض النظر عما هم فيه، ولم ألحظ أية إشارة للمشاعر التي أبدتها وهي سكرانة.

وفيما كانت تتمايل وتهمس وتتأوه وتمسح ركبتها بوسطي بشكلٍ فاضح لمحتُ وجه زوجها الذي أعرفه عن قربٍ في حفلات المدرسة ومناسبات أخرى. كان يقف مثلما يتوارى خلف أخيها وزوجته في المسافة المعتمة لفسحة المطبخ وسلم الطابق الثاني، لمحتهُ خطفاً لكن انفعال وجهه لا أنساه أبدا وكأنني أراه الآن لحظة الكتابة بالرغم من مرور واحد وعشرين عامًا على تلك الحفلة العابرة، وجه مخطوف مرتبك.. لا يعرف ما يفعل.. لا يفارق نظره حركتها، تخيلتني بمكانه وأدركت حجم الورطة التي أنا فيها فانتزعتُ شفتي من بين شفتيها الملتهبتين وناديت على ابني الكبير الذي جلبته قبل أشهر سرّاً من العراق، ودفعتها بين ذراعيه فأحتضنها هو القادم من العراق وقحطه يستطيع مضاجعة الجدار لا امرأة دنماركية تتمايل بين ذراعيه وتقبله. جلستُ على الأريكة الوثيرة مسترخيا منهكاً سابحاً بنضحي، أتنفس بعمقٍ كي استعيد توازني بعد أن تخلصتُ من مأزقٍ مركبٍ لم أمرّ بمثله أبداً. أغمضتُ عينيّ مسترخياً في محاولة للتوازن من عنف ما جرى وضغطه، باعدتُ أجفاني ببطءٍ ومددت ذراعي إلى طاولة المشروبات تناولت كأساً من الويسكي أخذت رشفة وحدقت في فسحة الرقص الحمراء المكتظة بالجيران مغتبطاً من خلاصي فرأيت ابني الطويل القامة والذي يستطيع أن يضاجع الحائط يحضن المربية بحنان ويهبط بوجهه ليرتشف من شفتيها الملتهبتين، كانت وهي الناحلة قصيرة القامة ذائبة بين ذراعيه الفتيتين القويتين القادمتين قبل أشهر من ضيم العراق، بمثل هذي الأخيلة سرحتُ منتشياً فهو خارج مني وكل ما فيه مني فهو أنا لا فرق،رأيته يغرق في قبلة طويلة جعلته

يحتدم حتى أطبق على ردفيها النحيفين وسحبها لوسطه وكأنه يريد أن يدخلها بجسده. لم تستمر نشوتي فقد شعرت بعينين مكسورتين تراقب الحلبة من عتمة حافة الصالة. انتصبت بجذعي الأعلى وحدقت بالفسحة المعتمة فوقعت عيني بعيني زوجها المكسورتين المذهولتين، المشلولتين، الفاضحتين عن عجز حاملها الناظر لجسد زوجته الممعنة في الالتصاق بجسد ابني المراهق هرقلي الجسد، وجواره تقف لينا تراقب المشهد متماسكة لكن حائرة كيف تتصرف. وقتها وكنت أرقب المشهد ظننت أنها أي "لينا" من أحرص البشر على لحمة العائلة، إذ سارعت حال تدخل زوجتي بفك اشتباك الجسدين وسحب ابني وهي تصرخ بالعربية:

- ولك ما تستحي سافل بعمر أمك وتمصمص بيها!

وهو يطأطأ رأسه كأنه فزَّ من حلمٍ، كانت "لينا" أول من ركض لها وتعاون الثلاثة، زوجها وزوج لينا ولينا، على حملها إلى الطابق الثاني حيث غرف النوم،في اللحظة التي كانوا فيها يصعدون السلم خرجتُ إلى الحديقة فرأيت زوجتي تنهال بالنعال العراقي العظيم، الذي ذقناه كلنا من أمهاتنا المتعبات، على رأس ابني صارخة:

- ما عندك شرف.. بعمر أمك!

تجسدتْ تفاصيل تلك الليلة و "لينا" تجلس مسترخية على الأريكة في الصالة تشكو من رتابة الحياة الزوجية،

كنت أضحك طوال الوقت، عادة لصقت بي وصارت سمة شخصيتي لكثرة ما مرّتْ بيَّ من مصائب حتى وجدت الحياة

مجرد مزحة أو فقاعة وصارت النكتة والتعليق الساخر المنبثق فوراً من الخاطر يثير الضحك ويخفف ألم كل حدث.

سألتها ببساطة:

- لينا ما جوهر المشكلة؟

والدنماركي حقيقي يقول ما يضايقه دون تبعات، فهو لا يخشى ما بعد القول.

- مَلّيتْ الجنس معه!

سألتها على الفور:

- كم عمر علاقتكما؟

- تسع سنوات!

فهدرتُ بضحكتي العاصفة المعروفة التي طَولت فيها، كانت تنتظرُ خاتمتها، كنا في مدخل البيت وهي تستعد للعودة لبيتها التي كانت تراه جحيماً.

قلت لها:

- لِمَ لَمْ تسألينا عن عمر علاقتنا؟

- صحيح كم؟

قلت وأنا منهمراً في ضحكتي:

- ثلاثون عاماً!

رددت بذهول:

- ثلاثون!

وصمتت تتأملني وأنا أمعن في قهقهتي من ذهول وجهها وفمها الفاغر كأن صرخة حُبِسَتْ فيه قبل أن تقول:

- أي رعبٍ عشتم فيه!

- رعب.. رعب..

رددت المفردة بين هدير ضحكي، واختلستُ النظر إلى وجه زوجتي التي يسقط على قسماتها الجميلة مصباح المدخل المتدلي، فوجدتها شديدة التعاطف مع جارتنا وهي تعلق:

- شيء مفزع أن يشارك الإنسان شخصاً واحداً كل العمر نفس الفراش، نفس الأنفاس، نفس الألوان، نفس.. نفس.. شيء يدعو للجنون!

انفجرتُ كبالون بضحك عاصفٍ موقناً أنها ستترك زوجها المسكين المتعلق بها جداً، أتذكره في ليلة حينما أودعا طفليهما عندنا وذهبا كلٍ إلى حفلة في مكان عمله كيف جاء باكراً ووجد طفليه نائمين وأتصل بها كانت الساعة جاوزت منتصف الليل وسمعته كيف يتوسل كي لا تقضى الليلة في مكان آخر. أخذ يلح ويتوسل، ولا أدري هل جاءت أم باتت، فالمبيت يعني الكثير لدى الزوج الدنماركي أو هذا ما أحسست به من خلال هذي العلاقة، ستتركه ردَّدتُ مع نفسي، ثمَّ قلت لها:

- "لينا" لا يوجد شيء ليس له حلٌ في الحياة!

- ورعب العيش مع الجسد نفسه كل العمر كيف تحل؟

انتظرتْ وهي تلبس حذائها نهاية ضحكتي العاصفة معيدةً السؤال:

- كيف؟

تمالكتُ نفسي بعناء وقلت لها:

- بالخيال؟!. ففيه تُحَل أعصى المشاكل!

تركتْ حذاءها يسقط من يديها على عتبةِ الباب وسألتني:

- كيف.. أنرني؟

هي لا تدري كيف حللنا مشاكلنا الجنسية بالمخيلة، العادة السرية والتخييل، أجبتها:

- تستطيعينَ "لينا" المسألة تحتاج سبعة مصابيح ملونة، كل ليلة تشكلين مصباح فكأنك تضاجعين رجلاً مختلفاً يوماً أزرق أو أحمر أو أبيض أو أزرق!

وكدت أسقط أرضاً من الضحك وهي تحدق نحوي بذهول فقلت لها:

- اسألي زوجتي اسأليها، فعلنا ذلك!

حملقت بي وأنا أغرق بالضحك بعينين ساخرتين ورددت:

- أنت يمكن مجنون!

فانغمرت بضحكٍ أكثر عصفاً، أكملت ارتداء حذائيها، منزعجةً من كل الحوار، فقلتُ لها أود أن أسرك بشيء بعيدا عن زوجتي. نظرت زوجتي نحوي شزراً، لكنني كنتُ متعاطفاً مع لينا جداً وأحاول أن أقدم لها شيئاً.

ابتعدنا عن باب بيتنا، صرنا في الشارع على مسافةٍ متساويةٍ بين بيتينا، توقفتْ واستدارتْ نحوي متسائلةً:

-هل أنت جاد بأن لديك حلاً سحرياً لم ترد قوله بحضور زوجتك؟

قلت لها ضاحكاً:

- طبعاً

قالت:

- ما هو؟

قلت لها:

- الخيال؟

- كيف؟

قلت لها بصوت خافت جداً:

-ضاجعيه بالظلمة وتخيلي غيره، هو يفعل الشيء نفسه، يتخيل وينتشي وتنحل المشكلة!

أزاحتني براحتيها بعيداً وهي تقول:

- أنتم الشرقيون كلكم مرضى!

بعد أقل من شهرٍ أصبحت وحيدة بمنزلها.

12-11-2018

منتديات «آلو آية» «Allo Aya»

2. قبلة الصباح

حملَ جسده المنهك من مقعده، وسحب من أدراج مكتبته سلة أدويته المليئة، وراح يخرج الحبوب من أغلفتها مردداً بصوتٍ خافتٍ أسماء أمراضه: سكر، كولسترول، ضغط، بروستات، ربو، قلب، غير بخاخات التنفس والأنف، وقطرة العيون، جمّعها براحة كفه المفتوحة وتناولها دفعة واحدة مع كأس من الماء.

عاوَدَ الجلوس على مقعده بمواجهة النافذة، خلفها ندف الثلج تتساقط منذ ساعات، أرتجفَ بالرغم من دفءِ الصالةِ، باتَ

شعور البرد يلازمهُ منذُ زواج أولادهم وعيشهم في سكن مستقل قبل عدة سنوات.

لم يعد تجذبه القراءة أو النزهة في الغابة القريبة، أو لقاء الأصدقاء، فَعاد لا يخرج من الشقة إلا نـادراً، يحملـق مـن شبابيكها بالوقت وهو يمضي، الشتاء بأمطاره، الربيع بخضرته، الصيف بشمسه، الخريف بألوانه، يتأمل تفاصيل العمر الذي مرَّ سريعاً، عنيفاً ليجد نفسه جوار عامه السابع والستين بالكـاد يستطيع التنفس والنوم، فالسعال لازمه في السنوات الأخيرة مُحوّلاً لحظاته إلى جهدٍ وعناءٍ، يحمل كيس نفايات صغير أينما تنقّلَ ليبصق فيه قطع البلغم الأخضر المتماسكة من صدرٍ يصدر صفيراً مسموعاً مع كل شهيق وزفير.

يسعل شاعراً بالسخريةِ من الحياةِ برمتها، حرارة المشاعر، الأحلام المستحيلة التي ظنَّ أن بمستطاعه تحقيقها في تغيير المجتمع وتحقيق المساواة وخلق بيئة تجعل الإنسان حراً سعيدا.

يفكر كل صباح مُقلِّباً التفاصيل فيهز رأسه وينفضه وكأنه يصحو من كابوسٍ ثقيلٍ.

العجيب في القصة كلها هو إصراره، فبالرغم من تكرار خطفه من الشارع والمقهى والمدرسة إلى أقبية مظلمة رطبة وتعذيبه لم يكف، ولم يفكر بالكف أصلا، فيندهش من تحمّله كل ذلك الإذلال وكأن المهان ليس هو، حتى أنه أقدم على مغامرة كادت تؤدي بحياته بحمله السلاح في الجبل وخوضه عناء تلك الحياة البدائية التي تشبه حيـاة الإنسـان في مراحـل التـاريخ الأولى: لا كهرباء لا بيوت، لا طرق معبدة، مجاميع صغيرة

محصورة بين الجبال الوعرة تتظاهر بالود والرفقة لكن القسم الأغلب في الجوهر يتنافس ويحقد على بعضٍ ويمارس كل رذائل البيئات المغلقة. تشرد معها بعد هزيمتهم عابرين الحدود إلى دولٍ مجاورة، ليحشروا في معسكرات نائية ضيقة الغرف يُوَزَع عليهم العدس اليابس والخبز وأمامهم مستقبل مجهول أنفرج بمحض صدفٍ ليجدا نفسيهما هنا في دولة أوربية نظامها الاجتماعي كفلَ لهما حياة مضمونة من كل النواحي وكأنهما انبثقا من العدم مرة أخرى.

هل كانت هي السبب في مقاومته كل الأهوال؟

هل كان الحب سبباً في اندفاعهما والمقامرة بوجودهما؟

لم يكن لديه قناعة أيديولوجية بفكرة فرض الأفكار على مجتمعٍ ما بقوة السلاح بالرغم من إيمانه العميق بفكرة المساواة والاشتراكية، بينما كانت في تعلقها بالعقيدة والمدينة الفاضلة شديدة الصخب، متوقدة عاطفياً مشتعلة بالحماس الذي يتغذى من عناد شخصيتها المُحبة للظهور؟

ظن أول الأمر أن السر يكمن في الحب! فطَربت نفسه لذلك، لكنه في المنفى ستهتز هذه القناعة التي أُشيدَتْ العلاقة عليها، سيشك ويتعذب كثيراً، هي كذلك سيصيبها ما أصابه، وفي الوقت الذي كتم فيه ما تولّدَ من اضطراب مشاعر مع توسع الشك،أجهرت هي مرات وأطاحت باستقراره النفسي فعاد قلقاً يتوقع السقوط في الهاوية عقب كل مشادة تُكَرر فيها تهديدها بتركه؟ البارحة انفجرت لخلافٍ في الآراء حول فلم "الزوجة" شاهداه في السينما سوية، فقد أصرّ على سخافة الزوجة التي

عيّشت زوجها طوال عمره في هاجس تركه، وهو الكاتب الذي فاز بجائزة نوبل، ويتطور الخلاف في رحلتهما لتسلم الجائزة بستوكهولم متضايقة من حشد النسوة اللواتي أحطن به في ضوء الجائزة، حتى أنها أختلت به، أنّبتهُ وهددتهُ فأرتعب متوسلاً كي تقول له إنها مازالت تحبه إلى أن يسقط على السرير مصاباً بجلطة يموت فيها في مشهد يقلب سير الفلم من جوٍ أدبي مخملي إلى مأساة وفاجعة. كانت منحازة لموقف الزوجة التي تغار وهو يتسلل من الفراش ليسهر مع كاتبة شابة معجبة معتبرة هذا الأمر خيانة لتاريخ قصتهما. ما جعله ينفعل ومشهد رعبه من تركها الذي يؤدي به إلى الجلطة والموت يتجسد أمامه فيشدد:

- مهما يكن فهذه الزوجة حقود لئيمة عيشته برعب الوحدة وفي أقصى النجاح قتلته بتهديدها بالهجر وهو في توالي العمر!

- لا.. لا.. ما شفته يتسلل من فراش النوم ليسهر مع كاتبة شابة معجبة وهو بهذا العمر ويحمل أمراض الشيخوخة كلها!

- وماذا بها يتنفس قليلاً بلقاء معجبة هو كاتب ويحب الجمال ومنتشٍ بالفوز!

- لا.. لا هو حقير وخائن ككل الرجال وأنت تبرر خيانة الرجل وتدافع عنها، عن نفسك بالحقيقة ألم تفعل مثله، ليس الآن بل في عزّ شبابي!

نكأت جرحاً حاولا نسيناه منذ سنوات طوال، فتجسّدت تلك الأيام العجاف التي عيشته في جحيمها وهي تسحقه بالإهمال وعدم اهتمام مركزةً على تعلمها اللغة ودراستها ونجاحها ثم عملها تاركةً شؤون الحياة والأطفال عليه، لم يتضايق أول الأمر

بل بالعكس دعمها وبالرغم من أمراضه قام بكل شيء بجداره من العناية بأطفالهم والطبخ وشؤون الحياة، لكنها لما وجدته مطيعاً حنوناً تمادت في إهمالها وصارت لا تتعامل معه كبشر إلا بمزاجها في الحنان والجنس، فصار الفراش مضطرباً لاختلاف الأحاسيس فقد بات يضطرب من برودتها بحجة التعب، وبات لا ينفعل باقترابها لأنها لا تفعل ذلك إلا حسب مزاجها. مضاف لمشكلة السطوة الاقتصادية وقتها وجد نفسه كأنه خرقة منسية وهو الجميل المحب الحنون فشبَّ من الطوق وأنشأ علاقة مع صديقتها التي تحرشت به وهي شابة يافعة. خاض معها تجربة قصيرة رومانسية سرعان ما تحطمت وهو يكتشف نوايا المرأة الخبيثة، لكن الأمر سيكشفه لها لاحقا صديق مات، كان يعرف قصة العلاقة فأخبرها تلفونياً، كاد أن يهدم العائلة لكنه لم ينجح، فالتعلق والتاريخ ذاد، لكن الشرخ توطد، وها هي تشهره بهذا العمر لخلافٍ حول فلمٍ عزمها عليه لكي يقرب روحيهما الممعنتين بالتباعد يوماً بعد أخر في خريف العمر.

تناسيا القصة فظن أنها اندثرت مع تبدد مصائر شخوصها لكنها أحيتهم بكلماتها، صرخ بها:

- هم رجعتِ لنفس الشريط القديم!

- مو قديم بعدك تدافع عن أخطائك!

قالتها ونهضت من الأريكة المجاورة فأدرك أنها سممت ليلته وهشمت محاولته لرأب الصدع، فأرتشف على عجل كأسا من الويسكي كان يخبأه في رف طاولة الصالة الثاني وصرخ:

- أشتعل دين اللي خلقك، كم تحبين النكد والمشاكل

التفتت نحوه قبل أن تتجاوز عتبة الصالة الفسيحة، ورمقته بسخرية وضيق قبل أن تقول بصوتٍ غليظ جارح:

- والله لو ما أخاف يگولون عافته وهو مريض لتركتك غداً!

نهض بعناء من كرسيه الهزاز المقابل للنافذة ليعد فنجان قهوة الصباح مخلفاً الندف المتراقصة تلعب بها الرياح وتجعلها ترتطم بجدران الأبنية والنوافذ وتشابك أغصان الأشجار العارية في الحدائق بين البنايات. تمهل في مدخل الشقة وتوقف جوار غرفة النوم وأرهف سمعه فتناهى شخيرها الخافت أليفاً، هو يدرك أنها تتعذب كل ليلة بعد مشادة من المشادات التي تنشب بغتةً لا يعرف كيف، فقد كانا يختلفان على أبسط الأشياء، وفي كل مرة تحاول السخرية منه وحينما يصدها بهدوء تنفعل فاقدة أعصابها لتعيد تهديدها القديم نفسه الذي أطلقته في أول سنتين وصلا فيها قبل أكثر من عشرين عاماً:

- أروح أسكن وحدي وأرتاح!

حتى إنها في إحدى المرات رزمت ملابسها واختفت في صباح يوم خريفي ماطر عقب مشادة عاصفة في الليلة السابقة، سيعلم لاحقاً أنها عاشت في بيت النساء التابع للبلدية، سيبذل جهدا مضنياً في اصطناع مشاعر الحب والشوق والتمثيل كي يجعلها ترجع عن قرارها إلى أن عادت على مضض ليعيشا بتوتر من جديد.

حمل قهوته وعاد إلى كرسيه الهزاز بمواجهة الفضاء خلف النافذة الذي أزداد سطوعاً مع تقدم النهار. شم بخارها عميقاً

وأرتشف متمهلا، أغمض عينيه رائياً ما فعل فيه أول تهديد وكيف قلب ذلك الاستقرار العميق الذي كانا يشعران به في أقسى الظروف وأشدها إلى اضطراب وعدم أمان. كانا في شبوب العمر أواسط الثلاثينات حينما قذفت به في دوامة قلقٍ فبات يجفل ويتوتر عقب كل خصام وهي تكرر التهديد نفسه، صارَّ الرعب أكبر بعد مجيء طفلهما الخامس وإحالته إلى التقاعد بعد ثبوت عجزه صحياً، بينما هي خرجت إلى الحياة وأكملت دراستها وعملت في دائرة حكومية،ضاق وقتها وباتت تعامله بجفاء وتعالٍ وهو المحبوس في البيت يعتني بالأطفال، يذهب بهم إلى المدرسة ويعود بهم ويطبخ، ويقوم بكل مهام البيت أيام عملها. اختلفت معه حول اقتصاد المنزل، فهو لا يعلم كم تقبض، وألقت على كاهله مصروف البيت، ليكتشف في السنوات اللاحقة أن راتبها أكثر ثلاثة أضعاف من راتبه فتدفع منه تكاليف الإيجار والباقي لا يدري ما تفعل به. لم يتناقش معها في الموضوع ففي المرة الوحيدة التي فتح موضوع اقتصاد الأسرة كونه متقاعداً وراتبه ينقص كلما زاد راتبها، ثارت وقلبت الدنيا وسمع كلاما عن تعبها وعملها وجهدها وختمت كلامها بالتهديد:

- تريد اطلعْ من البيت وعْيش وحدك وخلي ينفعك الراتب!

كان يرتجف هلعاً مع نفسه، لكنه يتماسك أمامها ويلزم الصمت، أو يخرج في نزهة طويلة في الحقول الشاسعة المجاورة ولا يعود إلا مع نزول المساء من بارٍ قريب يلجأ إليه ليشرب حتى يخفف رعبه من فكرة عيشه وحيداً بعيداً عن أطفاله الذين يعتني بهم طوال الأسبوع ويحكي لهم كل مساء قصة قبل النوم وبدأ يعطيهم دروساً يوميةً باللغة العربية ويذهب

معهم في نزهات في الحقول والمدن المجاورة عند انشغالها في العمل خلال عطلة الأسبوع وسفرها لحضور مؤتمرات عمل في مدنٍ بعيدة.

ومن يومها لم يَفتح هذا الموضوع أبدا، وقنع بالموجود حسب التعبير السائد، راتبه يكفي بالكاد لإطعام خمسة أفواه مدة شهر ويكفي أيضا لمخفف الآلام والمخاوف؛ السائل السحري الذي دونه كان سينفجر ويقول طززززززززز بكل شيء ويرتكب حماقة أو جريمة ويفلش الأسرة. كان يقول مع نفسه:

- الحياة محض عناء! هي هكذا!

ويتناسى التفاصيل مندمجا بها.

* * *

سهرَ البارحة عقب المشادة والخلاف حول الكاتب الذي قتلته الزوجة مفكراً بجنونها:

- هي مجنونة قال مع نفسه، مجنونة!

دخلت عامها الثاني والستين مهرولة خلف عمره الراكض صوب النقطة، يقتربان منها يقتربان وتهدده المجنونة بالترك والعيش مستقلة، تقول ذلك بثقة يستغربها كأنها يافعة وهي تعرف أن حتى الجنس صار مثل خاطر يخطر في سهوٍ يشبه الحلم.

سهر البارحة جزعاً وتخيلها ميتةً وهذا ما قد يحدث في أي لحظة، تخيل موتها أو موته، وشعر بالسخرية من الخلاف وعنف انفعالات البارحة:

- معقول تختلف وتتقاتل مع رفيقة عمر حول فلم وقصص وأنتما توشكان على الغروب!

- معقول!

هتف مع نفسه، وسقط في النوم متضايقاً من كلامها وملامحها وشكل انفعالها ونبرة صوتها تلك النبرة العجيبة المهددة المحافظة على نبرةٍ أرعبته منذ أول المنفي، الواضحة، الشارخة، التي طعنته البارحة وهي تضيف لهاجس الخشية من قول الناس عن تركه وهو مريض:

- شوف لو أحال على التقاعد فلن تراني في السنة غير شهر!

سمعها بعمق وقرر مع نفسه شطبها وكتم بعناء سيل شتائمه الذي أنهدّ:

- تفاهة.. حقارة.. وضاعة.. سخافة.. طز بالحياة وبأم الحياة!

هدأ قليلا عازماً على عدم الكلام معها حتى الموت، ثم صرخ صرخة مطعون وخمد، لم ينبس بشيء، عبّ المزيد من الكؤوس ونام مثل ميت.

أستيقظ منهكاً ولم ينس أنه قرر أن يرفض كيانها ويولد من جديد، لكن حال نهضته وجدها كتلة حية تنظر نحوه بحبور ظاهرةً من فراغ باب الصالة المفتوح فوجد نفسه ينهض ويتقدم نحوها ليطبع قبلة الصباح على شفتيها المنفرجتين متناسيا ماضي القصة ككل صباح.

23-10-2018

منشورات «آلاء»

3- زوج يحلم

عاد الزوج من المطار بعد أن ودعَّ زوجته، سافرت إلى أهلها لحادث عارض فوجد الشقة مظلمةً باردةً زادتْ من وحشته، ردّ الباب، كبس زر الضوء القريب مضيئاً المدخل الضيق وأسرع ليغمر غرف البيت بالنور، قفز بغتة وهزَّ جسده راقصاً وسط الصالة الفسيحة مرددا:

- وحدي، وحدي، وحدي!

غيّرَ ملابسه وشغلَّ التلفاز بأعلى صوته على قناة سمعية تبث

موسيقى كلاسيكية طوال اليوم، أحكمَ إغلاق النوافذِ، لم يسدل الستائر كما تَطلبْ منه كل يوم حال نزول الظلام، فيسحبها على مضض شاعراً بأنه في غرفة مغلقة تكبس على صدره، وفي كل مرة يدور حوار بكلمات محددة:

- مو اختنق!

ترد:

- عَ بالك گاعدين بالشارع!

- بالطابق الثالث من يشوفنا!

تكفهر وتنتفض:

- يعني أروح بالغرفة الثانية!

فيسدل الستائر وهو يحتدم غيضاً ويفور.

ينحلّ التوتر قليلاً.. قليلا وتتلاشى نظرات الضيق والبرم التي يختلسانها لوجهي بعضٍ في لعبة ستائر المساء اليومية،

دَارَ في الغرف ثم تمايل في رقص إيقاعي يتقنهُ فطرةً على تاسعة بتهوفن التي يعشقها والمعادة عدة مرات في هذه القناة. أنشد مع نشيد النصر بصوته الغليظ منفعلا مبتهج المشاعر والجسد للحرية المباغتة الهابطة بغتةً من اتصال هاتفي جاء من بلدهم البعيد يدعوها للحضور الفوري لشأنٍ عائلي ملح، تمايل في النشوة مخدراً فهي لا تحب هذا الموسيقى الكلاسيكية، أما بهذا سماعها بهذا العلو معني ذلك أما مشادة في الشتاء أو الخروج في نزهة في الصيف. لبثَ في الغبطةِ الممتدة وقال مع نفسه:

- سأكتب واكتب وأكتب قصصا جديدة!

وتذكر كيف كان ينهدُ في الكتابة مع كل سفرة لها قبل عبوره الستين، متناسيا ما أصاب جسده من أمراض شيخوخة غير متفاهمة مع بعضها جعلت ذاك الدفق ينحسر ويضيق، دار حول نفسه وراح يتكلم بصوتٍ عالٍ:

- سأشرب بلا مخثة، سأشرب يا الله بلا وجه عابس، وسأخرج القناني الحبيسة في الأدراج المظلمة، في الدواليب، بين الكتب، في المخزن، سأحررها، سترى النور وَتُمَتِعْ ناظري طوال الوقت بسوائلها المختلفة الألوان الذهبي،والأبيض، والأصفر، سأشربها بالثلج يا رب الكون!

وهرع نحو دولابٍ جوار مكتبته يخفي فيه قنينة ويسكي، نصّبها وسط الطاولة العريض جوار الأريكة الوثيرة وتأملها لدقيقة من كل الجوانب وكأنها الكعبة، في المطبخ كَسّرَ الثلج قطعاً صغيرةً، وأعدَّ أنواع السلطات، اللبلبي، الباقلاء، الليمون، قطع الجبن، الفستق، قطع لحم مشوي، لبن، رتبها في صينية مدورة كانت معطلة في المخزن وحملها مرددا:

- اليوم سكرة معتبرة وبكرى الكتابة!

صبَّ كأساً قوياً وأنزل قطع الثلج على حافته وهزّه، كان من المستحيل عليه فعل ذلك بحضورها،فيضطر إلى إخفاء قنينةٍ وكأسٍ صغير في مكان غير الصالة لا تتواجد فيه وقت المساء، درج في المطبخ، أو في الشرفة وسط أغراضٍ متروكةٍ. يملأه على عجل ويجرعه حاراً دون مزة دفعة واحدة، يغالب حرقة معدته في أول كأس، يمسح فمه ويعود إلى الصالة فيتعرض إلى

عينيها الفاحصتين المتشككتين، وحينما تتأكد بعد عدة كؤوس من ثقل لسانه يكفهر وجهها. بسبب هذا الاكفهرار الذي يحيل الخمرة سماً كان في السابق يدخل معها في مشادات أدت إلى خروجها من الشقة، ما أضطر للتخفيف كي تعود، لكنه لم يكف، إذ يشعر أن الحياة لا معنى لها دون شرب، وعاد حين يرى وجومها المفاجئ يشرب عدة كؤوس على عجلٍ، يتركها تتفرج على فلمٍ أو برنامجٍ في صالة فرحه اليومي ويخلد إلى السرير باكراً.

كفَّ عن الهزِ، وظل يعبَّ الكؤوس بنهمٍ، لا يدري متى نام وكيف فقد ظل يستمع إلى الموسيقى ويحلم بالكتابة ويسجل ملاحظات ويرقص لفكرة برقت، يقنصها ويفتل بجسدهِ قليلا، ويستلقي مسترخياً على الأريكة. زار أمكنة وخاض في أحوالِ شخصياتٍ، رجال محبين، غلاظ، طيبين، مساكين، قتلة، أجساد نساء في غرف معتمة، في المسابح، في زوايا طفولته، قصور فارهة، وبيوت فقيرة مزدحمة، رحلة تتصاعد مع الكؤوس إلى أن سقط نائماً على الأريكة.

أستيقظ متأخراً مصدوع الرأس. أستحم. حاول أن يستعيد قواه بكل الوسائل، شرب فنجان قهوة، أكل قليلا، لكن الصداع لازمه فأضطر لحلّ "كسر الخمارية" بأن يتناول كأسا واحداً يذهب بالصداعِ، ففعل أتنعش قليلا، مع تلاشي الألم هَبَّ إلى دفتر الملاحظات وبدأ بالكتابة، في أول استراحة فكر في كأس ثانية فهي غير موجودة وهو حر، قال مع نفسه، وأخرج من حقيبة جلدية تحت طاولة مكتبهِ قنينة أخرى، فتحها بحبور وصبّ كأسا. تصاعد حماس الكتابة والأحلام، لكن بعد الكأس الرابعة

خَفَتَ كل شيء فترك الطاولة وأستلقى على الأريكة ساقطاً في النوم.

ككل سفرة ستلفه هذه الدوامة حتى عودتها، فَيَتَعَطّلْ في أحلام وقصص يعيشها كل مساء.

17-10-2018

منتديات ولاد عدي «ALIYaa»

4- تِظلْ الروحْ تِتْحَبْ

انزوينا في ركنِ بارٍ في الطريق، كنتُ قد دعوتها لكي نَتَكلم ونَتَحاور، فنحنُ لم نتبادل حديثاً منذ فترة طويلة، عدنا نخشى الحوار الذي أصبح يؤدي لا محالة إلى شجارٍ.

ارتشفتُ من كأسي رشفة بيرة. تأملتها منفصلاً تماماً عن رواد البار المنشغلين في الحوار ولعب البلياردِ. خلف وجهها الصخر أرى بحراً من الرقةِ والألمِ والخيبةِ، وخلف عينيها الجميلتين الواسعتين فضاء من الخواء،

- من أين أبدأ؟

كنتُ حائراً، فما فَعلتـهُ ليلـة الأحـد الماضـي كـانَ حماقـة الحماقات، أنا الذي لا يكفُ عن ارتكابها بالرغم من تقدم العمر والتجربة.

ماذا أقول وذلك اليوم العاصف يُشعرني بالعارِ؟

ماذا أقول وهي المتعبة، المنهوكة القوى من مسار التجربة المرة ومن عملها وسط اللاجئين الأجانب، وأمراض جسدها الكثار؛ ألآم مفاصلها، ظهرها، تنفسها والعديد العديد؟

ماذا أقول وكيف أبدأ؟

وأنا أتذكر ما حدث وكأنهُ يحدث هذي اللحظة؛ عببتُ كؤوساً عديدةً من الفودكا في لحظاتٍ وهرعتُ نحو السلالم الخشبية قفزاً قاصداً غرفة نومنا، فتحتُ الباب، وجدتها تندس لتوها تحت الغطاء، نصف قائمة نصف مستلقية، حدقتْ بيّ بهدوءٍ وقالت بصوتٍ خافتٍ:

- ها..

- تردين تنامين!

- نعم.. متعبة.

- زين!

قلتها واستدرتُ نحو العتبة، عبرتها ونزلتُ السلالم بصخبٍ.

كنتُ وحيداً متوحشاً، وخلف نافذة الصالة الواسعة كانت ندف الثلج تتساقط ببطءٍ شديدٍ، عببتُ كأسين أخرين، احتدمت مثل

فرنٍ يَدْوي وصرختُ بصوتٍ مخنوقٍ:

- يا إلهي يا إلهي..

وصعدتُ إليها ثانية، كانت غافيةً، أيقظتها، فتحت عينيها مذعورة:

- ها.. شكو؟

- ليش تنامين.. أرد أعرف عندچ واحد غيري!

انصعقتْ. تجمدتْ لبرهةٍ متصلبةً، ثم انهدتْ كميتٍ من التعبِ، وفي عينيها فزع طاغي يكاد يفيض، أخبرتني لاحقاً: بأن ملامحي وما فيها أرعبتها أشّدَ الرعب كنتَ كمن يوشك على ارتكاب جريمة، كنتُ أطل عليها وهي تستقيم بجذعها الأعلى مستعيدة توازنها، ثمة صراخ يحتدم في قسماتها الشاحبة، تركتها في ناصية الجحيم ونزلت لأحتسي مزيداً من الفودكا، أفور دائراً في الطابقِ الأسفل، أفورُ مثل ثورٍ هائجٍ بحثاً عن عراك، محتدماً بما لا أدرك كنهه.

لا أدري

أهي الوحدة.. لا أدري.. لا أدري!

سمعتها تتكلم بهاتفها النقال فاتحة الحاكي، كنتُ أفور وأعب مزيداً من الفودكا التي أخفيها في مكتبي وحقائب أوراقي، كانت تكّلم أبننا الكبير الذي استعار سيارتها للسهر مع أصدقائه، طلبتْ منه العودة فوراً بعد أن أخبرته ما حدث بيننا.

عاد فوراً، ألقي علي التحية وسألني:

- بابا أش صار؟

لم أجب بشيء، فهرع إلى السلالم. سمعتها تبغي الخروج، كان الليل أبيض تمور فيه عاصفة ثلجية، اعترضتُ طريقها ساداً بجسدي الباب المؤدي إلى المدخل قائلاً:

- وينْ.. ترديْن تكرار تجربة غيابك قبل عامينْ؟

- ..

تكسّرتْ قسماتها، لم تعلق بشيء.

- لا مبيتْ خارج البيت!

صرختُ بلهجةٍ قاطعة.

تراجعتْ نحو السلم وهي تتكأ على ذراعِ ولدنا. جعلتُ أخور خانقاً صراخي وعببتُ كأساً أخر، الخمرة ماء والليل ثقيل واللحظة رصاص، لا أستطيع الجلوس لا أستطيع الوقوف لا أستطيع الدوران، لا الخروج ولا الهدوء. نهبتُ السلم بقفزات صرتُ وسط الفسحة بين الغرف، تلكأت أمام باب غرفة نومنا المردود، ترددتُ في دفعها، ثم عزمت؛ وجدتها تجلس محطمةً على السريرِ وأبننا يتوسد قرب قدميها أرض الغرفة يسند ظهره إلى الجدار شديد الحزن، محمر العينين، صامتاً ينصت لها. أمعنتُ في سخفي متحدثاً بنابي الكلام، لم تجب بشيء، أخبرتني في الأيام التالية؛ بأنها قدرت للوهلة الأولى لو تفوهت بشيء أو ردتْ لضربتها، لكنها كي تكسر دائرة الصمت انفجرتْ بوجهي مثل لبوةٍ حبيسة فانسحبت قائلا:

- ليس لدي استعداد لسماع كلام يشبه كلام بنات الشارع!

آه ما أقسى الإنسان يا ربي، ما أقسى قلبي وما أجلفه!

بعد لحظات نزلتْ مع أبننا، اعترضتهما مرة أخرى قائلا:

- وين.. وين؟

- مختنگه أريد أتمشى ويه أبني!

تنحيتُ جانباً وتركتهما يخرجان، بقيت وحيداً مع الخمرة والصمت، غير قادرٍ على شيء حتى على سماع أغانٍ عراقية حزينة كما كنتُ أفعل في أزماتٍ تشبه هذه مما فاقم وضعي وزاده وحشة.

قلت لها البارحة وهي تَهمُ بالصعودِ إلى غرفة النوم بعد أن صفا الجو نوعا ما بيننا:

- بتُ أخاف من نفسي جداً!

- ليش؟

- بدأت أميل للصمت في خلوتي بدلاً من سماع غناء

قالت:

- كل عمري أفضل الصمتْ.

- هذه مشكلة

- لِمَ؟

لم أستطيع القول بأنني مرعوب من امتداد الصمت اللانهائي، فقلت:

- مزعجٌ هو الصمت.

- بالعكس هو فسحة للتأمل بما كان وما نحن عليه وما في العالم.

- بالنسبة لي يضعني جوار قبرٍ ومعناه.

انتفضت قائلة:

- أتريد القول بأني ميتة!

جعلت أخور في الصالة مثل ثورٍ مسموم، أدور في الصمت وحيداً، أفتح باب الحديقة، ترشقني ندف الثلج المتراقصة في الريح المدوية، أعود إلى صمت الدار، الخلوة، حماقاتي، عجزي، استلابي:

- كيف فعلت ما فعلتْ؟

أحدقُ في اللوحات المعلقة، أدراج المكتبة، الأرائك، الصور القديمة المنتشرة بالجدار، وجهي الفتي يطل على بؤس لحظتي، وجه أمي وأبي يحملقان بيّ وكأنهما يرثيان لحالي، وجه أصدقاء وأحباب سبقوني إلى السماء، محاطاً بالموتى، بالصمت، يا إلهي لماذا لا أسمعُ ندباً يبكيني، ندباً عراقياً حقيقياً يدميني كما أفعل طوال سنين الشدة في الحرب والتشرد والمنفى حينما أنهار باكياً على لوعة الغجرية "سورية حسين" وهي تندب بصوتها الشاكي الذي يذبح:

"يلي كله سماره حلو ينحب

تظل الروح دوم عليكْ تنحبْ".

وضعت "الكاسيت"، دقائق وشعرت بالغناء يضايقني، يثقل لحظتي، يضّخم الضجة القائمة في رأسي. أطفأته وبركتُ في

الصمت والانتظار، في المتاهة والمدار.

هل صاحبتُ موتي وذاك الأنين المتصل القادم من بعيد؟

كاد رأسي ينفجر، فنهضت من الأريكة، تسلقت السلالم بهدوء هذه المرة، فتحت باب غرفة طفليَّ الصغيرين، طَبَعتُ قبلتين على الوجنتين الساكنتين، وانسحبت ناقلاً خطوي بحذر على درجات السلم الذي يأز مع كل خطوة، بركتُ في صمت الصالة، أنصت لدقات ساعة الجدار الرتيبة:

- أين ذهبا؟

ارتديتُ معطفي الثقيل، وخرجتُ، أردتُ التأكد من وجهتهما، هل استقلا السيارة أم أنهما يدوران قريباً من البيت، قطعتُ المسافة نحو موقف السيارات القريب، وجدتها مغطاة بالثلج المتساقط منذ ساعات، كانت الريح العاصفة تدوي وندف الثلج تضرب وجهي، عدت من حيث أتيت وأمام البيت لمحتهما قادمين من الفرع المقابل، ما تبقى من أحداث تلك الليلة يزيدني عاراً وشناراً، دخلا بصمت، لذتُ بالأريكة أنصت لوقع نزع المعاطف والأحذية ووقع الخطوات على السلالم. تركاني في خواء الصمت والعاصفة، تنمرتُ، صرتُ أكثر من مجنونٍ، أتيت على ما تبقى من قنينة الفودكا، أبحرت في موج رقاص الساعة، في خوائي الهاوي في صمت موّاتْ، أبحرتُ في الجروح، في الندوب الصغيرة العابرة، في الطعنات الغائرة، فاستيقظت كل ما بالروح من مخلفات العذاب والسحق في تجربة هذا العمر العاصف، فوجدتني مثل كلبٍ أجرب وحيدٍ يندب خراب روحه.

وحيداً

مع كأسي

في صمتي

وحيداً في القصة

هل ثمة قصة في هذا الخواء؟

ومن كانت سكني وأبني مرّا عليّ وصعدا مثلما يمران على غريبٍ لا بل على منبوذٍ مصاب بداء.

- صعدا.. صعدا!

هتفت مع نفسي

نمّرتني الوحشة وألبستني مشاعر حيوان بدائي منبوذ.

العاصفة والبرد خلف النافذة، العاصفة في سكون أشياء الطابق الأسفل، فتحت قنينة أخرى، عببت كأساً، ازددت توتراً، الخمرة ماء، عصفت بيَّ ريح الأهواء، حب مخنوق لا باب له، وغضب يشبه الحقد تَفَجّرَ فاقتلعني من جلستي البائسة ودفعني نحو السلالم، لم أجدها في سريرنا المشترك، كان خالياً مبعثر الأغطية، أكيد لجأت إلى غرفة الطفلين ككل مرة، هل تظن بأني لا أبغى منها إلا الجسد، وجدتني مجنوناً، فتحت الباب بصخب، على ضوء الفسحة أمام غرف النوم رأيتها ترفع رأسها وتحملق نحوي، لم أدخل الغرفة، قلت بصوت خافتٍ مسموع:

- ع بالك أريد النوم معك؟

- كـ..... أمك

قلتها بصلافة لهجة الشارع السوقية.

تجلس أمامي، بثوبها الأسود الطويل وقسماتها الجميلة الحزينة بيننا الطاولة الصغيرة وخلفها ضجيج البار، كيف أبدأ كيف وأنا مرتكب كل هذا العار، قلت:

- بِمَ أبدأ؟

كانت ترمقني كمن يتمعن بكيانٍ جديد، كيان التبس عليها.

- أبدأ من حيث تشاء.

قلت:

- أبدأ بالحب، فليس لديَّ سواكِ امرأة!

- كلام سمعته مراراً!

- ...

- كرهتُ الرجال، كل الرجال، سأترهب، سأترهب ليس لدي سوى أولادي والباقي قبض ريح.

أردتُ التعليق، لكنها أردفت:

- أسمع لم أمنح جسدي وروحي لسواكَ وأنت خير من يعرفني عنيفة وبعد هذه الخيبة معك سوف أُرَهب هذا الجسد، وإذا أردت أن تنتهكني..

عند هذا الحد تَقَّطعَ صوتها وأختنق وانهمرت في بكاء خافت متمهل خاص بالذوات الصلبة القوية التي تحاول أن لا تظهر ضعفها للأخر أيَّ كان، كانت تهتز بكل جسدها الناحل، خلفها لاعب البلياردِ منهمك بتصويب عصا اللعب الطويلة لضرب

كرته بالكرات الأخرى المنتشرة في حوض المنضدة الواسع ذي الثقوب الستة. راحتْ تختض بكل جسدها متخيلة لحظة اقتحامي الليلي لجسدها الشهي في أوقات الوئام، وفي أوقات عدم رغبتها إزاء توهجي العاصف الذي أدى بنا إلى الاختلاف وتراكم الصدامات الصغيرة واختلاف المزاج في الفراش، كانت تختض لتدفع عنها لحظة محتملة في كل ليلة وهي أن أقتحمها في السرير وأضاجعها دون رغبتها، ومن بين دموعها وجسدها المرتجف أكملتْ بخفوت ورجاء:

- ترتكب بحقي جريمة لو حاولت، بحق جسدي وروحي، فالأمر لا يختلف عن اغتصاب!

واهتز جسدها من جديد بنوبة بكاء خافت وهي تردد:

- حرام عليك.. حرام!

تلفظها من كيانٍ مبعثرٍ جعلني أفهم بعمق فداحة ما أقترفُ بحقها، لكني تداركت نفسي وأجبت:

- هل تعتقدين أني حيوان، سوف لا أقربك أبداً، فبدون علاقة روحية وجسدية مطلقة كما كنا لا أقبل ببديل!

قالت:

- مستحيل!

اتكأت بظهري إلى مسند كرسي وقلت:

- إذن لنفكر ببديل!

انفجرت بنوبة بكاء جديدة وقالت:

- لكن أعشقكَ بجنون!

كان الليل يخيم على روحينا واللاعبون يمرحون وسط البار.

كنا نتمزق على مقعدينا تحت وطأة وجهينا والكلام.

18-10-2021

منشورات وائل يحيى «AlYaa»

منشورات «الأيام»

5- شبح الوحدة

كان يوماً بارداً. كنا نجلس في كافتيريا بمواجهة البحر والسماء فضية ناصية، كان منهكاً،رفع رأسه عن كوب القهوة نصف الفارغ ورمى ناظريه عبر الزجاج إلى مدى الماء وقال:

- عشت مع امرأة هي الدمار بعينه!

- ليش؟

- كل يوم أكتشف أنني أكرهها كره العمى

- ليش.. ليش؟!

- ما أدري!

- هذا جحيم يا صديقي!

- ..

- كيف تمرر يومك؟

صديقي متقاعد منذ سنوات يقضي يومه في البيت، ضحك في نوبة بدت مثل عصبية حتى كاد أن يسقط على الرصيف وحينما تمالك نفسه قال:

- بالخيانات الزوجية والكتابة!

كان عائداً للتو من بلدٍ قريبٍ في غزوةٍ جنسيةٍ مع شاعرةٍ مطلقةٍ بعمره، سألته:

- والنهار والليل والوقت؟

أمعن بالضحك وقال:

- أسهر الليل مع الكتابة ونساء النيت، ووجه الفجر حينما تنهض احتل السرير، قلت له:

- هذي مو حياة خَلْصنْ نَفْسَكْ؟

أطرق طويلا ينظر إلى كوب القهوة الفارغ على الطاولة قبل أن يرفع رأسه وينظر نحوي بعينين دامعتين ويقول:

- هذا قدري!

قلت له:

- خلص نفسك!

- كيف؟

- انفصل.

- وأعود للوحدة مرة أخرى!

صديقي تزوج متأخراً وعاش هنا في الدنمارك وحيداً قرابة عشرة أعوام.

- أفضل لك!

- وطفلتيّ إني مجنون بهما

- إذن ستموت يا صديقي!

ومات بغتة بحضن عشيقته، بغتة في العام نفسه، مثل الحياة بغتة

2017

منتديات ولاد عدي «ALIYaa»

6- زوجات الأدباء

ماتت زوجة صديقنا الشاعر في لندن بعد معاناة طويلة بمشاكل في القلب، ماتت بالمنفى البارد وتَركتْ صديقنا الشاعر وحيداً. حال سماعي الخبر تذكرت قامتها الطويلة وشخصيتها القوية وهي تداري جلستنا وقت زيارتي شقتهم بركن الدين على سفح جبل قاسيون بدمشق. كانت خفيفة الظل مثقفة يسارية تكتب قصصاً للأطفال وتنشرها في المجلات المتخصصة، وكشأني في الحياة لا أدقق كثيراً في الأشخاص الذين أحبهم، ولا أنتبه

للتفاصيل أو للتناقضات الصغيرة التي تحتاج لعين لئيم بالمعنى المعرفي.

في مرةٍ اصطحبتُ صديقاً روائياً، في بيتهم الدافئ تشعبت أحاديث الثقافة والأدب والسياسة، ولما كنتُ سكيراً أفضل الخمرة والسكر على شؤون اليقظة فقد عببت ما لا أدري من عرق "الريان" وَحّولتُ الجلسة إلى تصنيف ونكات وضحك حينما أوشكت أن تنشب مشاجرة بين صديقنا وزوجته الجميلة التي وجدتها محتدمة ترتجف غضباً فقلبتُ الوضع، ماتت فنزل الخبر عليَّ مثل ضربةِ شمسٍ وأنا أتخيل نفسي محل الزوج الثاكل فرأيت خواء الحياة دون زوجتي ورفيقة دربي هكذا ظننت.

أصابتني الحيرة فأنا أسوء الناس في مواساة المفجوع، ماذا أفعل؟ فكرت بالاتصال لكن ماذا سأقول له وأية كلمات تفي بالغرض!، سهرت في الطابق الأسفل أعب الكأس تلو الكأس حتى ثملتُ، لكنني لم أجرأ على ضرب رقم تلفونه، كنتُ أجد كلمات المواساة تافهة لهول المصيبة، وبدلاً من رقمه ضربت رقم صديقي الروائي الذي يسهر كل ليلة هرباً من فراش الزوجية بحجة كتابة رواية جديدة بينما هو يُقَحِبْ من بنات الشات والذي كان معي بتلك الزيارة في دمشق قبل أكثر من عشرة أعوام، شكوتُ حيرتي وعذابي قلت له:

- ما أدري أش أقول له!

قهقه بسخرية وقال:

- هاي أش بيك سلام، هسه صاحبنه فرحان!

- معقولة؟

- يرقص من الفرح لأن خلص منها!

صعقني الكلام، طَيّرَ السكرة، بلّدَ حزني، وسخّف حيرتي فلزمتُ الصمتَ لدقائق، لم يقطع الاتصال فهو يدرك تكويني ووقع الكلام عليّ، تمالكت نفسي وقلت:

- راح تخبلني معقول هذا الكلام؟

- أي معقول سلام، تتذكر لمن زرناه ببيته بالشام وسهرنا، أنت تشرب وتضحك وما تنتبه، ما شفت أش لون سخرت منه، كلما يتحدث بموضوع تقاطعه وتعارضه وتسخفه!

تذكرتُ توتر الحوارات التي قلبتها إلى هزل، استرسل:

- سلام تابعتْ رجفة أصابعه ومحاولته الكلام لوقف تسخيفها وتفنيدها لكل حادث يرويه لنا. تصور حتى سالفة بسيطة عن حادث في شارعهم وموقع دكان في المحلة واسم صاحبه، كذبته وهزأتْ من ذاكرته وَخطأت الاسم وجغرافية الدكان.

- معقول!

- نعم سلام هذي الحقيقة لا هو يستطيع البوح بها، ولا الآخرين

وقتها قلت مع نفسي:

- أي خباثة ولؤم بروح صديقي الروائي

لكن مرت سنوات تابعت فيها صديقنا الشاعر والمترجم الأرمل الذي طولَّ وأزدهر وأصدر الكثير من الكتب وما زال

يعيش في لندن ويساهم في الحياة الثقافية.

بالمقابل مات الروائي مبكراً غيضاً من خواء حياته وعذابه الخاص الفلسفي والاجتماعي، ومن غيظ الحياة الزوجية، مات على كرسيه أمام الكمبيوتر.

19-6-2019

7- غدر الصديق

- أرجوك هذا الموضوع لا تذكره بكتاباتك!

أخر جملة كتبها في المحادثة وبعدها اختفى تماما، كان ذلك قبل خمس سنوات، فصاحبي يكبرني بعامين، معرفة قديمة جداً، صداقة بدأت متوهجة في الصبا وسرعان ما خفتت بعد أشهر، لكنه ظل حاضراً في مسار حياتي بمراحلها حتى أنه كان من ضمن المجموعة التي سربناها سراً إلى الثوار في الجبل عام 1982، قبلها في سنوات دراستنا الجامعية في بغداد سكن معنا

مدة في غرفة مقابل معمل القطن الطبي،كـان يـدرس بكليـة القانون،رسـام بـالفطرة،يبـدو لطيفـا، حنونـاً، سـاخراً، منكتـاً، محبوباً، وكنت الوحيد الذي أعامله بتثاقل مشوب باحتقارٍ خفي، فكان يشعر بذلك لكنه يتحاشى سؤالي.

أتاح لنا العالم الافتراضي والمسنجر التواصل بمبادرة منه، فهو يتابع ما أنشره على صفحتي من قصصٍ ومقاطع يعجب بها جداً فبادر بالكتابة،كنت أتابع أخباره بالرغم من القطيعة فقد افترقنا في قرية بأرياف السليمانية حينما قرر تـرك الكفـاح المسلح واللجوء إلى إيران بينما بقيت أنا حتى فشل الحركة ولجوئنا إلى دمشق وهناك زارتنا زوجته الفلسطينية لمرة واحدة في شقتنا المستأجرة كانت تنتظر إجراءات لمّ الشمل وسمعتُ لاحقاً أنها التحقت به في السويد، فاختفت أخباره تماما لسنوات، وعن طرق صدفة أخبرني قريبٌ له في حفل زواج بأن زوجته هجرته لترتبط برجل سويدي فكمن لها في موقف سـيارات وطعنها بسكين طعنتين في كتفها فحكم عليه ثلاثة أعوام، صلتنا الافتراضية عادت بعد خروجه من السجن، لم أطرق موضوع حياته الاجتماعية ولم يتطرق إليها، كان مهتماً بما أكتب عن شخصيات الديوانية والحياة فيها، ومتحمساً لطريقتي، وكنـت غافراً له كل شيء بعد هذا العمر والتجارب، لكنه في حوارٍ من حواراتنا مهد كثيراً فتكلم عن مرور العمر ودخولنا ربعه الأخير وأيام الشيخوخة ثم دخل الموضوع المؤجل منذ الصبا قائلاً:

- سلام..لدي شعور أنك تنظر لي بعدم احترام طوال العمر منذ الإعدادية وجلسات الشرب في نادي الموظفين، وفي بيتك لمن رتبنا الالتحاق بالثوار، وحتى بين الثوار تهملني ولا تعيرني

اهتماماً ولا أدري لماذا؟ جاوبني أرجوك فأنتَ صرتَ كاتباً تحلل مأزق الناس والمجتمع؟

ارتبكتُ لم أكن راغباً في نبش ذاك الماضي، لزمتُ الصمت وحاولت تغيير الموضوع لكنه ألحَّ:

- سلام قل وريّحني!

رماني في بحر تلك الأيام، كنا معا طلبة رابع ثانوي نعمل في تنظيم أتحاد الطلبة العام المحظور واجهة من واجهات الحزب الشيوعي العراقي، وقعتُ بهوى تلميذة جميلة تسكن شارعهم فتوطدت علاقتنا، كنا نقرأ بلذة جريدة "طريق الشعب" السرية ناعمة الحرف يجلبها من صاحب مكوي في الشارع الخلفي، وقتها لم أكن ثائراً فحسب بل غير مبالٍ، ولا أخاف من شيء، لدي ثقة مفرطة بالناس خاصة ذوي الميول اليسارية فأقمت علاقات مع رجال يساريين يكبرونني بعشر سنين وأكثر، كان "نعمة نور" الفنان التشكيلي يمر خطفاً فنختلي ونحكي عن حبيبتينا المتصاحبتين طوال الوقت، كان يعشقها بصمتٍ، لم يبادلها كلمة واحدة، يكتفي كل عصر برؤية وجه الحبيب مرة واحدة ليأوي إلى بيته البعيد ويتركني مع شلة الشارع.

لاحظتُ صاحبي في مراتٍ عديدةٍ حينما يحلّ الظلام ونصبح وحدنا بين صخور تحتل وسط الشارع يدمغ وسطه المتوتر في حركة مفضوحة كنت أتجاهلها وأتصنع عدم ملاحظتها، هل كنتُ خبيثاً أود الوصول إلى عمقِ مبغاه أم كنت عفوياً؟، لا أدري، لكنني انزعجتُ منه جداً، وكان ثالثنا شخصٌ يدعى "جواد سهر" يأتي في المساء ويسهر معنا إلى ساعة متأخرة من

الليل، عضو بالاتحاد الوطني منظمة السلطة الطلابية العلنية، سأعرف لاحقاً بأنه قُتِلَ في جبهة الحرب مع إيران، كان يشتكي من أخيه الشيوعي السكير الذي يخطب كل ليلة عند عودته من النادي مخموراً فيزعج العائلة، ويسهب بالسخرية منه روايا عنه المزيد من الطرائف،فأنزعجُ من غمزه على أخيه الشيوعي بينما صاحبي يستمتع ويضحك مسروراً.

في الفرع الجانبي المقابل لجلستنا بيت "صاحب سلام" الشخصية الشعبية، وقتها لا أعرف عن حياته إلا ظاهرها كونه رياضيًا، وتُروى عنه قصص مشاركاته الصاخبة في تظاهرات الشيوعيين زمن "عبد الكريم قاسم" وإطلاقه لحمامات بيض رمزاً للسلام شعار ذاك الزمن، وكان بطلاً في المصارعة، يعود كل ليلة متأخراً من دكان حلوياته الشهير وسط شارع العلاوي تفوح منه رائحة العرق المسيح والدخان. يقف معنا دقائق يسمعنا جديد النكت والمواقف الغريبة ويؤوب إلى بيته، فكنا نَعّزهُ ونحترمهُ.

في ليلةٍ من تلك الليالي دعاني"صاحب" للشرب معه في بيته، وأنا بكل طيبة قلبي وسذاجتي قَبلتُ الدعوى بتشجيعٍ من صاحبي وجواد سهر، يضاف إلى فضولي وإعجابي بشخصية "صاحب"، جلسنا في غرفةٍ فقيرةٍ، عَمّرنا كأسين وتحدثنا عن الرياضة فأنا رياضي أيضا وأراني صوراً يعرض فيه جسده في مسابقة كمال أجسام وصوراً عن مباراته في المصارعة، وبغتة أمرني بلغة سوقية:

- گوم أخ الگحبة أنزع!

جمدت بمكاني مذهولا مرددا مع نفسي:

- معقول"صاحب"

وقتها كنت أظنهُ نبياً!

كان متنمراً يعيد عبارته السوقية مثل مخدرٍ، استنكرتُ وقلتُ له بعبارةٍ صريحةٍ:

- صاحب أني ما أَنَيْكْ!

أزداد شراسةً، كان أقوى مني،قاومت فضربني بقبضته المضمومة القوية ضربةً أصابتْ أذني اليمني التي ظلّت تؤلمني طوال العمر، كنتُ قوي الروح، أصررتُ وذكرته بالنضال وشخصيات عائلتي المعروفة رموز يسار الديوانية، عمي "موسى سوادي" قائد نقابات العمال في زمن "عبد الكريم قاسم" ولاعب كرة القدم الشهير في شبابه، و "خليل" المنكت الشهير، وأبي "عبد سوادي النجار" المناضل الوطني المعروف، إلى أن وقفَ منتصباً أمامي وفي وجهه ألم من يشعر بالذنب لينهار ساجداً ويحاول تقبيل قدميّ، سحبتهما بعيداً وقلتُ:

- صاحب قمْ

جلس مستنداً على ركبتيه وانهال ضرباً على جبهته ورأسه مردداً:

- آني حقير..

آني ساقط..

آني منحط!

أصرَّ على توصيلي من الحي الجمهوري إلى الحي العصري وهو يبكي طوال الطريق ويعتذر، "صاحب" سيلف نفسه في بطانية زمن الحرب العراقية الإيرانية ويحرق نفسه وسط شارع العلاوي ظهراً.

كتبتُ له:

- كنت أحس بكَما، أنتَ وجواد سهر خلف شباك الغرفة تتسمعون لحواري مع صاحب سلام!

- ..!

انتظرتُ قرابة دقيقتين، لم يرد بشيء، واصلت الكتابة:

- كان غدرك مركباً وموجعاً كنا أصدقاء ورفاقا في عمل سري وصحبة شفافة لذا عاملتك بما تستحق....

- ..

ودعتهُ كنت أبغي النوم!

أستوقفني فكتب:

- انتظر لحظة سلام!

- أسمعك!

-سلام أرجوك هذا الموضوع لا تذكره بكتاباتك!

قلت له:

- ما أدري ما أَوعدَك

وها أنا لا أذكر أسمه.

2-7-2019

8- بابا..اسكتْ

لدي ثلاثة أبناء، الكبير هربنا وتركناه بعمر ثلاث سنوات ملتحقين بالثوار في الجبل، وحينما التحق بنا كان بعمر السادسة عشر أي جاء مشرباً بثقافة العراق وما مرَّ به من حروبٍ وحصارٍ، أما أخاه وأخته فقد ولدا هنا فجهدت معهما لترسخ ثقافتنا، ليس ثقافة المجتمع العراقي السائدة، بل ثقافة عائلة مناضلة متنورة أقرب للنظام الاجتماعي الذي وضعتنا الأقدار فيه.

الصغير "صلاح" ساهمت في تكوينه صغيراً، قصة كل ليلة قبل المدرسة، دروس عربية،حاولت تعليمهم العربية قبل بلوغهم سن المراهقة حيث يصعب قيادهم في هذا المجتمع المفتوح، كنت أحاول إيجاد موازنة بين الحرية والسلوك في معادلة لا أدرك كنهها في البيئة الدنماركية فأنا أنحدر من مجتمع مغلق صارم تمردتُ باكراً، أنفلتُ وعملتُ المصائبِ فكيف به هنا، وما السبيل إلى التوازان.

بلغ "صلاح" سن المراهقة، حَرِكْ، حار وأسمر، لم يسكن لحظة.

خضتُ مع أبنائي بموضوع الجنس والحياة دون خشية ولا حاجز، كنت أأمل لهم حياة جنسية سوية، سيخبرني الصغير لاحقا بأنهم مارسوا الجنس قبل عامهم الخامس عشر وهو السن المسموح به في الدول الإسكندنافية حيث لا يحق للعائلة محاسبة الابن على سلوكه الجنسي:

- بابا كنا نمارس الجنس وأحنه بالسادس.

تحاورت معه طويلاً محاولاً ربط الجنس بالمشاعر وليس بالغريزة فقط، فكنا ندخل حوارات تعكس اختلاف ثقافتين وبيئتين، بيئة مغلقة الجنس فيها من المحرمات ومكتظة بالأسرار والخفايا، فالطاقة الجنسية التي وضعها الله أو الطبيعة بالكائنات لا راد لها فهي غريزة حياة وحينما تقمع تُنَفِسْ بطرقٍ سريةٍ وشاذةٍ وعنيفةٍ أحياناً، وبين ثقافة مفتوحة يدرّس الجنس فيها من المرحلة الخامسة تشريحاً وسلوكاً في حياة مختلطة في المدارس والشارع، كنت أحاول حمايته من الابتذال وجعله على الأقل

يعثر على حبيبة ويقيم علاقة يكون الجنس فيه مشاعر وشغف لا غريزة فقط، أسهبت في الشرح وأفضتُ بالأفكار عن هذه المفاهيم، كان ينظر نحوي بعينيه الذكيتين المشتعلتين منتظراً خلاصة ما أريد توضيحه، فسألني بوضوح بعربية قوية:

- بابا.. بابا.. وضح لي بمثل، جاي تحكي أفكار وما جاي أفتهم!

خلدتُ إلى الصمت قليلاً وتأملتهُ؛ كان نحيفاً صغير البنية يجلس جواري على الأريكة وسط الصالة منتظراً بعينين عميقتين تتراقص فيهما النيران، حوصِرتُ، تحيرتُ قليلا قبل أن أمسك بالفكرة:

- أسمع بابا مثلا ممارسة الجنس الجماعي لا مشاعر فيه!

في جلسات شربنا أخبرني ابني الكبير بقصصٍ جعلتنا نموت من الضحك، عن كيف تشترك مراهقتان بشاب أو العكس، وفصلَّ فرعي القادم من جوع العراق تجاربه، كان داعراً،يشبهني فقد عشنا البيئة نفسها، وجوعنا لا يشبعه إلا التراب.

- وَضّحْ أكثر بابا!

- يعني مثلا تنام مع أثنين بفراش واحد!

أتذكر ردة فعله بدقة، سحب نفسه وعدّلَ جلسته ونظر إلى سجادةِ الصالةِ للحظاتٍ، ثم رفعَ رأسه ووضعَ عينيه الداكنتين بعيني وقال:

- بابا.. بابا.. لدي سؤال؟

- اسأل!.

- بابا أنتَ مُجربْ تنام ويه أثنين بنفس الوقت؟

صعقني السؤال، فجمدتُ تحت عينيه اللامعتين المنتظرتين، ومرّ خطفاً عمري الجنسي البائس تلصص، عادة سرية، مضاجعة الكائنات الميتة والحية، الصور والخيال،كنا نسبح في سواقي الحقول والبساتين خارج المدينة ونحفر برمل الضفة حفرة ندس فيها قضباننا المتوترة، فظائع لا أستطيع البوح له بها سيموت من الضحك لو أخبرته، فماذا أجيب قلت له بصوتٍ واهن:

- لا بابا ما مجرب.. بعدين وين أجرب!

ضحكَ بصخبٍ وحينما هدأ قال بودٍ:

- بابا چا أسكت!.

19-7-2019

9- ما زلتُ يا صديقي

في أزمةٍ من الأزمات العائلية نَشرتُ العديد من الصـور والقصائدِ والنصوصِ ورسائل غرامٍ كتبتها في فتراتٍ مختلفةٍ من حيـاتي الضـاجة بالمخـاطرِ والتنقلِ والتخـفي والمقاومـةِ والتشردِ والمنافي، فتراكمت لدي رسائل غرام بحجم كتاب.

كلما هزتّنا الأيامُ والتجاربُ والاختـلاف أهـرع إلى نشـرِ عيناتٍ من تلكَ الرسائلِ، طبعا العينات الإيجابية وأقصد رسائل الشجنِ والأشواقِ وليس الخلاف وذرواته، في محاولةٍ لترطيبِ

الأجواء بما يسعف من التآكل الذي يعصف بالعلاقات الطويلة التي تختزن كل عوامل التنافر والتوحد في الوقت نفسه حسب المواقف. لم أبُح لأحدٍ من أصدقائي بمحن وأسرار علاقتي الزوجية، بل بالعكسِ أكتم كل المآزق وأدفنها عميقا في رسائلِ ويوميات لا ترى النور وأظهر ولا سيما بعد نشر مواقع التواصل الاجتماعي كل ما هو بهي من مشاعرٍ وطرائفٍ وأحداثٍ، وكان هذا ومازال يسعدني جداً ويبعث السرورَ في قلبي بالرغم من أنه يفسر دائماً لدى الشريكة تفسيراً مخالفاً، فتنظر لما أفعله نظرة ريبة، وشك يتجسد بتعابير وجهها، وبالأسئلة الضاجة في عينيها القويتين وهما تحملقان طويلاً في وجهي المبتسم دائماً في بحرِ اليوم والتفاصيل، مقارنةً بين المشادات التي تحدث بيننا على أبسط التفاصيل الحياتية وبين السمو الروحي الذي أنشره في رسائلٍ وقصص وطرائف وخطرات مصحوبة بصورٍ تعكس بهجتنا.

لم يكن ذلك تملقاً، لا لا فأنا أبعد البشر عن هذا السلوك، لم أتملق أحداً في حياتي؛ لا أبي ولا أمي، لا حبيبة ولا سلطة ولا حزبٍ ناضلت في صفوفه، بالعكس كنتُ مشاكساً لكل هذه المؤسسات الاجتماعية والسياسية في الرحلة كلها ولازلتُ. لم يكن تملقاً، ولم أشأ شرحهُ لها وتفسير مقاصدي، سلباً أراه يرتسم على قسماتها وهي تنظر نحوي خفية، أو تعاملني بتعالٍ وعدم انتباه، ولا تشعرني باهتمامٍ خاصٍ يتناغم مع شدّة بوحيَّ في الصورٍ، وانتقاء رسائل شوقٍ أجعل منها آلهتي الوحيدة.

حينما يكون شريك الرحلة الطويلة بهذا التكوين وردود الأفعال والموقف يصبح من غيرِ المجدي شرح فكرة فلسفية

عمقتْ سلوكي وجعلتني أكتشف أمراً بسيطاً جداً يغفله البشر عادةً إلا وهو أنني أستطيع أن أجد في كل يومٍ سعاداتٍ صغيرةٍ تجعلني أشعر بالغبطةِ في الحياةِ، فكرةَ كون الحياة لحظة، والإنسان يعيش مرة واحدة، وهي رحلة قصيرة تمتد من الولادة إلى الموت، رحلة عناء وكفاح مضنٍ عشتهُ وخضتهُ، كنتُ خلالها أتصرف كأنني أعيش اللحظة مستدلاً بالشطر الأول لكلام منسوب لـ "علي بن أبي طالب؛ "عشْ لدنياكَ كأنكَ تعيش أبداً"،أعيش لحظتي بعنفوان وهذه القناعة جعلتني صريحاً لا أسرار لدي أحبُ البشر فحضني حضن العالم يستوعب الجميع،هذا جسّدته في كلِ ما كتبتُ من قصصٍ ومقالاتٍ وروايات، قناعة فَتَحتْ ليَّ بابَ السعادةِ ومفهومها العميق، فكنتُ مبتهجاً بلحظة الحياة بالرغم من كل ما مرَّ بي من مآسٍ وظروفٍ كدتُ أقضيّ نحبي فيها في السجنِ والحربِ والتشردِ والحياةِ.

ما أفعلهُ وأقوم بهِ من محاولةٍ لردم هشاشة التفاصيل اليومية عن بخلِ الزوجات وغيّرتهنَ وترديهن من مناضلاتٍ متحررات في فتوةِ العمرِ إلى انغلاقٍ يمّيز بيئة طفولتهنَّ وعوائلهنَّ وكل ما يستدعي ذلك من تحولٍ سلوكي يُسممَ حياةَ من يعيشها كلحظةٍ.

هذا الإجهار الصارخ بالمحبةِ هو مثل صرخةٍ لإعادةِ الحياة للمسرى الخفي الذي انحدر كنهرين سريين في الروحِ التقيا في مجرى هادر خاضَ التجربة ونجا من مسلخها ليعيش في بلدٍ يكفل حياة معقولة لبشرهِ.

هل نجحتُ في هذا التقديم والشرح الطويل تمهيداً لما أود

قَصْهُ من أحداثٍ وحواراتٍ طريفةٍ، لا أدري، لكن هذا ما لدي من قدرة عقلية لحظة الكتابة.

صديقٌ لي حميمٌ يتابع كل ما اكتب أولا بأول، يعلق ويتكاتب معي في المسنجر، ويتصل هاتفياً لنخوض حواراتٍ طويلةٍ حول كل شيء؛ الروايات التي نقرأها، المواقف، المقالات، وكنّا قريبين فكراً ومواقفاً وتمتد علاقتنا لأكثر من خمسة وعشرين عاماً، لم نختلف إلا قليلاً، نتزاور على فتراتٍ متباعدةٍ، لم يتحّمل رسائل غرامي كتب لي على الخاص:

- معقول يا سلام.. معقول!

- شنو المعقول بالأمر، شنو الموضوع صديقي؟

- الرسائل اللي جاي تنشرها!

اختلطتْ عليّ فقد نشرتُ سلسلةً طويلةً من رسائلِ أصدقاءٍ شعراء وكتّاب صعدوا إلى السماءِ، فقلتُ:

- أي رسائل تقصد؟

- رسائلك لزوجتك!

- أش بيه صديقي أش بيها؟

- معقولة مشاعرك بهذي الحرارة وره كل تلك السنين والعيش المشترك!

لم أتمالك نفسي فضججت بضحكة عاصفة هههههههههههههههه هههههههههههههه هههههههههههه هه

حتى غرقتُ وأنا أتخيل قسمات وجهه النحيفة وعينيه الصغيرتين ونظرتهما الساخرة من كل ما يحيط به وشفتيه الراسمتين علامات الهزء وتبرّمه من التاريخِ والحياةِ والنساءِ والكونِ، وبعد أن هدأتُ قليلاً قلتُ لهُ:

- نعم صديقي ما زلتُ أكنُ لشريكتي الودّ كلهُ والحب كلهُ!

- سلام أنت مجنون أكيد!

- هههههههههههههههههههههههههه ومن قالَ لكَ إني عاقل، لو كنت عاقلاً ما خضتُ كل هذي التجارب! هههههههههههههههههههههههههه

صَمَتَ طويلاً حتى ظننتُ أنهُ سيقطع الحوار، كما كانَ يفعل في مراتٍ عديدةٍ، فلهُ مزاج يضيق بالحياةِ بغتةً، وصوّرَ ذلك في العديدِ من روايتهِ وأشعارهِ وقصصهِ القصيرةِ، تخيلتهُ يسهر في صالةِ شقتهم الكبيرة مثل حالي تلك اللحظة، متعباً من حواراته الغرامية في الشبكة العنكبوتية مع نسوةٍ من بقاعِ العالمِ قرأنَّ رواياته الضاجةِ بالجنسِ ويدخلنَّ معهُ في حواراتٍ تبدأ كما أخبرني مرةً:

- سلام المرأة الشرقية كائن من أغرب الكائنات!

- أش لون؟

- بالمسنجر تبدأ العلاقة بكلمة أستاذ وأخي ثم تهبط إلى الميانة والمزاح وعبارات الدلال والصداقة لتصل إلى الجسد والتفاصيل ولما تثق فيك تريك أشيائها الحميمة وتتضاجع معك إلكترونيا.

متُّ من الضحكِ كنا نتسكع وسط شارعِ المشاةِ في

كوبنهاجن، فتوقفتُ عن المسير وجلستُ على صخرِ الشارعِ المرصوفِ غارقاً في موجاتِ ضحكٍ يتوالد مع كل شهيقٍ يعيدُ أنفاسيَّ، وحينما هدأتُ سألني مدهوشاً:

- ما المضحك يا سلام في قولي؟

انتابتني موجةٌ أكثرَ عصفاً، قاومتها وقلتُ بسرعةٍ قبل أن أسقط فيها:

- المضاجعة الإلكترونية

هههههههههههه

- بعدين ما الفرق بين شرقية وغربية، صاحبتنه محصورة بالقيم والأعراف تنفس عن نفسها إلكترونيا، والغربية يبدأ الأمر في الابتسامة وفنجان قهوة وأحاديث يبرع فيها من ينجح هو أو هي في حمل صاحبه إلى السرير موحد البشر أضبط من نشيد الأمميـــــــــــــــة مومومـــــــــــــــو؟

هه

هههههههههههههه

طبيعة بشرية وغرائز يا صديقي النيّاك الإلكتروني لا شنو نيّاك "جلّاق إلكتروني" هههههههههههههههههههههههههههههه.

لم يزعل أبدا من مزاحي وفشاري فقد ألفه وتعود عليه بعد عدة لقاءات.كان ذلك قبل زمن الفيسبوك.

تخيلته وأنا انتظر رده كتابةً، كنا لا نفضل الاتصال الهاتفي ولا أدري لماذا، هل لأننا نكتب الروايات، كتب لي:

- سلام.. سلام بروح أخوك "كفاح"، صحيح ما تكتبه عن حبك لزوجتك؟

- وهل في يوم ما شعرت بأني أنشر عكس مشاعري يا صديقي!

انتظرتُ دقائق، فهو من يصحح كل نص أكتبه منذُ سنواتٍ طوال، وكان معجباً، هو الذي لا يعجبه العجب، بما أكتب من تفاصيل صادمة لا تقيم اعتباراً لقيم مجتمعاتنا المغلقة، انتظرتُ إلى أن كتب:

- لا.. سلام صديقي وهذا اللي عجبني بيك لأنك صريح وصادق وجريء أجد تصريحاتك ورسائلك عن زوجتك غريبة،ردت أتأكد، أني أحسدك إذن!

- ليش ليش الحسد صديقي، على شنو؟

- لأني أعيش مع امرأة أكرهها كره العمى!

طيّرتْ جملته نصف العرق الذي ارتشفتْ كي أخوض مثل هذا الحوار العاري، عمّرتُ كأساً وشفطه دفعةً واحدةً وكتبتْ:

- تكرهها وعايش معها!

- أي.. أي.. أي سلام؛ كره العمى مو قلت لك كره العمى چا ليش متعجب مما تنشر!

- صديقي ما جاي أفتهم أشلون تقضي يومك من الصبح للمساء مع امرأة تكرهها يعني مثلا أشلون تنام بالليل جوارها في السرير مثلا!

قلت له ذلك لأنني زرته قبل سنوات فهو يسكن في مدينة بعيدة وأعرف خارطة بيته فهو ضيق من ثلاث غرف ومطبخ وله ثلاثة أولاد، فردّ:

- سلام أسهر طوال الليل أكتب ووجه الصبح لمن تقوم من السرير كي تفطر الأولاد ليذهبوا إلى المدرسة أنام وهكذا.

قلت:

- صديقي هذي حياة بائسة ليش ما تغيرها؟

- أغيرها؟!

- أي هذي الحياة جهنم تضاجع إلكترونيا بالليل وتنام وجه الصبح حتى تتحاشى الاحتكاك بها يا صديقي هذا جحيم؟!

- سلام أولا أحب أولادي ثانيا لو طلعتْ وعشتْ وحدي منو يطبخ لي ويغسل ملابسي وينظف البيت!

لم أكف عن الضحك هههههههههههههههههههههههههههه

لم أكف حتى أنهى الحوار.

وبعد أيام

كتبت له:

- أفكرُ بك طوال الوقتِ وخائف عليك جداً تسهر للصبح كل يوم، وتدخن علبتي سجائر، وتكره من يشاركك الفراش نفسه، وتحب أولادك بجنون.. هذا ضغط لا يتحمله إلا ممثل يلعب دوراً يشبه حياتك في فلمٍ، أما الإنسان الواقعي فينفصل حفاظاً على نفسهِ والأسرة وإلا ستحدث كارثة في لحظة ما، فمن

المؤكد هي تبادلك المشاعر ذاتها وتكتم خوفاً على فقدان لحمة العائلة.

لبثتُ منتظراً حتى خيل إليّ أنني أسمع صوت أنفاسه المتقطعة وهو يشرع بسحب دفعة جديدة من الدخان قبل أن يكتب جملة مكثفة جدا:

- وأعود يا سلام لحياة الوحدة الفظيعة مرة أخرى!

وعلاقتنا تمتد إلى تلك الأيام التي كان يعيش فيها وحيداً في مدينته البعيدة، وكم كان يبدو سعيداً حينما يزورنا فيتغزل بالطبخات العراقية غزلاً بدا غريباً لمن لم يعش وحيداً، لمستُ رعبه من العودة إلى الوحدة والعمر يجري فكلانا عبر الستين، قلت له:

- لكنك تعيش في بيئة ضاغطة قد تقتلك!

- لا أنفس عن الضغط بالخيانات هههههههههههههههههههه

فهدرت معه بضحكة مكتوبة هههههههههههههههههههه، وسط قصص خياناته الكثيرة التي كان يروي لي تفاصيلها فنموت من الضحك المصحوب بلذة خاصة بمن نشأ في بيئةٍ صارمة كل ما هو لذيذ فيها يجري بالسر والليالي والخلوات!

بعد أيام من حديثنا، وفي صباح شتوي أبيض، وجدته زوجته ميتاً على كرسيه أمام الشاشة.

20-1-2019

منشورات «دار الوفاء»

10- موت شاعر

قبل أعوام أربعة مات قريبي الشاعر في شقته وحيدا في كوبنهاجن. يصغرني بسنتين. إنسان معذب عاش حياة عنيفة. تطوع في الجيش العراقي قبل إكمال دراسته الإعدادية، وأعتقل زمن جبهة الشيوعيين والبعثيين الوطنية بتهمة تنظيم عسكري لم تثبت عليه فأطلق سراحه قبيل الحملة على اليسار أواخر سبعينيات القرن المنصرم.اختفى عن الأنظار إلى أن رتب أمر هروبه خارج العراق، كان ثورياً متحمساً ومن أوائل الملتحقين

بالثورة المسلحة بأرياف كردستان، كان من الذين أسسوا القواعد الأولى، لم نلتقِ فحينما التحقتُ كان قد أصيب بالتدرن الرئوي،فأخرجوه إلى الشام للعلاج. انغمر بحياة دمشق الضاجة، كان صاخباً سريع الغضب نقياً فأصطدم في كل محيط اجتماعي حلّ فيه، ولدخوله في مشاجرات وعراك عنيف قامت السلطات السورية بإبعاده إلى لبنان بعد أن تزوج من زوجة رفيق له تركها ملتحقاً بالثوار منذ سنتين، ورزق منها بولدٍ وحيدٍ،عمل مصمما في صحافة المقاومة الفلسطينية، وحملتهم باخرة أخلت بيروت من الفلسطينيين عقب الاجتياحالإسرائيلي1982 إلى تونس ليستقر في ليبيا ويعمل في صحافتها مصمماً، ولعلاقته المتوترة بزوجته وضربه اليومي لها قررت العودة مع أبنها بالاتفاق مع السفارة العراقية في ليبيا إلى العراق، فأُجبرتْ على العمل بالأمن فقامت بإيداع أبنها لدى عائلته، فعلت ذلك دون علمه، أتى في ظهيرة صيفية حارة من المجلة ليجد البيت فارغاً، كاد أن يجن، فتش عنها في كل مكان دون جدوى، وحينما تأكد من اختفائها التام انهار نفسياً وجسديا، تقيأ دماً ورقدَ أسابيعاً في المستشفى، ليعود إلى عمله يائساً معلولاً إلى أن أنقذه قريب رتبَّ سفره إلى الدنمارك فأستقر بعد تلك الحياة العنيفة.

التقيته هنا، فوجدته صعب العشرة معقداً، وسريع الغضب. كنت أتفّهم قصته وتاريخها وتعقيدات حياته فحاولت النهوض به بالرغم من معاناتي إشكالاتٍ لا تختلف عما يعانيه لكني متماسك أعرف أين موضعي.

أصدر عدداً من الدواوين شعرية، وهو رسام ورث موهبته من أبيه.

كان شديد الانغلاق معقد، بدأ يكره الجميع وأشياء لا أود الخوض بها، قطعت علاقتي به تماما منذ ليلة رأس سنة 2000 كان ضيفاً في بيتي لكنه تجاوز على ضيف أخر وهو صديق مشترك لنا جاء من مدينة بعيدة. كنا نتحلق حول طاولة الطعام والشراب نمرح ونحكي نكتاً وذكريات ونسخر من بعضٍ في موجة سرور حينما أنفجر بغتةً وأخرج من جيب سترته سكينا شهرها بوجه الضيف وراح يشتم ويزبد ويرعد، تدخلت بعنف وطردته من البيت. ومن يومها قطعت علاقتي به. فما بيَّ يكفيني فانا أيضاً من تلك البيئة وتمزقاتها.

* * *

مات بغتة في شقته،كان يعيش وحيداً، وبالصدفة عثر عليه جار عراقي يسكن جواره كان في طريقه إلى العمل باكراً فلاحظ باب شقته مفتوحاً، نظر من الباب فرآه ميتاً على الأريكة وهو يحاول ارتداء قميصه،يبدو أنه حاول الخروج ففتح الباب ليتراجع إليها ويموت.

أحزنني موته المبكر،أشعرني بالذنب فمن المفترض أن أكون عوناً له في محنته، فبيننا الكثير من الروابط، صلة دم واهتمام أدبي وفني مشترك، خضنا تجربة مقاومة الدكتاتورية باللسان واليد وليس بالقلب،لم أكن صبوراً ولم أتحمل سلوكه الذي من المفترض بيّ تفهمه واستيعابه لا اتخاذ موقف حاد بقطع العلاقة.

أحزنني جدا فكتبتُ ملخصاً عن حياته المعذبة وعنائها ونشرته على جداري مع صورته ونماذج من أشعاره، نسيت أن أخبركم أنه يكتب أشعاراً جميلة وعميقة ومتقنة وشفافة، نشرتها

ونمت ليلتها.

صبيحة اليوم التالي وجدتُ بريدي الخاص ممتلئ برسائل من نساء مفجوعات لفقده، جربت الرد والحوار فدخلت حوارات طريفة، كلُ واحدة منهن تشعر أنها الأقرب له، وكأنهُ عاشرهنَّ فعلاً، وجميعهن رددنَ بلا على سؤالي "هل ألتقيتِ بـه؟"، وأضفنَ:

- لكن أتوصل معه كل ليلة ونرى بعض بالمسنجر!

حاولت التخفيف عنهن بوصف العلاقة بالوهمية لكنّهنَّ أصررنَّ على أنهن حبيباته، وكل واحدة منهن تظن أنها الوحيدة،لم أنّم سهرت أتحاور وأخفف عليهن عناء الحب والوله بالكلام والكلام متأملاً هذه الأرواح المعذبة المتعلقة بأوهام الحبيب في بيئات مغلقة مكبوتة متأزمة، كنت أنصت متأملاً الشقاء البشري بكلماتهن ومشاعرهن وحرقتهن على وهم إنسان لا يعرفنه أصلاً، واحدة منهن شابة في عشرينياتها ظلت تدخل عليّ كل يوم وتطلب مني أن أكتب لها كل شيء عنه، حبيبها وشاعرها المسكين الذي مات وحيداً بائساً حسب تعبيرها، أكتب كل شيء.

فماذا أكتب لها؟ اعتذرت وكتبت لها بأنني لا أعرفه عن قربٍ، فغضبت:

- أن ما كتبته عنه ينّم على أنك تعرفهُ بالتفصيل، والتفصيل هذا أود معرفته فهو حلم حياتي!

وراحت تخبرني بتفاصيل أحاديثهما في الماسنجر، كنتُ

أدرك قدرة شاعر عايّشَ تجارب عنيفة وقاسى من عنت الحياة على التأثير بمشاعر صبية أردنية مكبوتة محاصرة.

كتبت لي في ليلة أخرى:

- سأجن.. سأجن، جافاني النوم، مات حبيبي الشاعر معقولة مات، حلم حياتي كان لمس أصابعه الحانية والرحيل بعينيه وشم عطر جسده النحيل دافع لاستمراري بالحياة!

كنت أضحك حينما ترتسم كلماتها أمامي على الشاشة، فماذا أردَّ وكيف أبين لها أن تجربته المريرة جعلته يعتقد أن المرأة دون ضرب لا تهدأ ولا ترتاح ولا تجر عدل حسب التعبير العراقي، لا أريد البوح بشيء عن حياته الخاصة وتراجيديتها وقصة الزوجة التي أضطرها الضرب إلى التحول من مناضلة إلى عميلة أمن،ماذا أقول وهي تلح وتلح:

- أحكي لي عن حياته أنت كنز وجدتك صدفة بموته، وحدك من يدلني عليه في غيابه.

هذه كلماتها البليغة. وأي كنز ضاع منكِ.

أخبرتني أنها سوف تنتحر أن لم أساعدها بالحديث عنه، فاضطرتني إلى ترتيب قصصٍ عنه مختلفة تماماً عما عاشه فعلاً، فهو مثلا بعد أن نجحت بجلب ابني الذي تركناه بعمر ثلاث سنوات سراً، بالتسلل إلى كردستان عام 1997 تشجع وفعل ما فعلت وتمكن من جلب ابنه. لكن حينما عاشا معاً في شقته في كوبنهاجن فقدهُ. إذ كان عنيفاً. لفقت أو بأدق رتبت وحسنت وأخرجت قصصاً عن إنسانيته وعطفه،كنت في الحقيقة

مستمتعاً كمن يقرأ رواية أو يؤلف ولا أشعر بذنبٍ من الكذب في هذا العالم الوهمي.

المرأة الثانية التي حفظتها ذاكرتي لبنانية قروية محتدمة، أخبرتني أن الحياة دونه ليس لها معنى، تفحصت صفحتها. كانت متوسطة العمر، شكلها معقول لكنه عادي، طمعت في معرفة عما كانا يحكيان ويحلمان به، فسردت لي أحلاما وأحلاماً عن مواعيد ضرباها للقاء تتأجل في كل مرة لظروف الشاعر الطارئة، عن اشتعالها وتوقها لمسك كفيه والتمسح بهما. كنت ألتهم كلماتها النار المشعة في الشاشة متخيلاً نشوة الشاعر الجالس وحيداً في شقةٍ من غرفةٍ واحدةٍ يصفر بها الخواء بعد فقدان الابن الوحيد والصحبة، فوجد في الشاشة وأوهام التواصل عبر الشبكة العنكبوتية دفئاً مشعاً يبعث عن النشوة لكن سرعان ما يتلاشى بضغط طرف الأصبع على زر الخروج.

تعبت من حوارات يومية، شكوى لواعج هو لو كان حياً كان سيموتُ من الضحك أو الأخيلة على وهم مشاعرهنَّ، فصاحبي الذي قد يسمعني من نافذة في السماء خَبّرَ مجتمع الكبت المصاغ منه.

تعبتُ فقلت لهن يوما

- ستلتقينَّ به حين يحين موعد صعودكنَّ إلى السماء!

جَفلنَ جميعهن من هذا المنطق، فأفضت بخبث كاتب يتصنع البراءة والشفافية:

- أكيد سيكون هادئاً في عالم الأنوار ذاك، ويعاملكنَّ بحنان

يعوض ما فاته بالحياة!

وعدت كلما اتصلت واحدة أصل بحوار قصير إلى بـاب الموت والسماء فتنغلق بقية الأبواب، لكن بعضهن لم يكففنَ كأنهن يبحثن عن بديلٍ فظللن يحومنّ حولي إلى أن ألغيت صداقتهن ببلوك.

25-12-2018

منشورات «دار الوفاء»

11- حقد الشاعر

كنت على موعد معه بمحطة قطارات كوبنهاجن الرئيسية، وكنت مسروراً فقد ألتقينا أكثر من مرة وشربنا في الشارع وأنشد لي أشعاره الجميلة التي أحسست أن بها تجربة وعمقًا ومعرفة في اللغة بالرغم من مظهره الذي لا يوحي بتلك الأشعار.

ومع تكرر اللقاء بدأت تتكشف شخصيته في مواقف فجعلتني أتوجس منه في بادئ الأمر، وأخفف من اللقاء به. كان يلح

ففهمت أنه يعاني من عزلة اجتماعية مبعثها ليس إبداعي بل إشكالي.

في لقاء من اللقاءات المبكرة استقبلني هاشا باشاً، ضاحكاً، مسروراً بخلاف كل مرة فحياته داكنة خسارة في بطن خسارة، عانقته مستغرباً ومتوقعاً بأن ثمة حدثًا جلب له كل هذا السرور. وبعد أن هدأنا بادرني:

- تعرف سلام أنا اليوم أسعد إنسان في العام؟

مازحته قائلا:

- أنا كل صباح أشعر بأني أسعد إنسان في العالم؟

حملق بيّ باستغراب فأردفتُ:

- وداعتك صديقي أسعد إنسان أني!

تجاهل كلامي، وأدار الموضوع حول مقاصده قائلا:

- أنت أشلون صديق غير تسألني ليش أني سعيد الليلة

أفحمني فسألته:

- ليش؟

عبّ نفساً عميقاً من الهواء، وذهب بنظره بعيدا إلى المارة وسط باحة المحطة، ونفث الزفير بوجهٍ مسترخٍ حلمان قبل أن يحدق بوجهي بعينين لامعتين منتصرتين ويقول:

- سمعت خبراً لو صحَّ سأسكر اليوم سكرةً ليس لها مثيل!

توقعت مجداً أدبيا، خبراً فيه فرح شخصي، علاقة حب مثلاً

وهو الذي لم يعثر على امرأة بعد في الدنمارك، أو شيئاً من هذا القبيل ففرحت وقلت مع نفسي إنني الليلة سأشرب في جلسة جميلة تخفف وطأة حياة المنفى، فتفاصيل اليوم قاسية ثقيلة ، بعد كأسين أمام بحيرة في حديقة تنبهت سألته:

- لم تقل لي سبب غبطتك؟

غرقتْ ملامحه بنشوةٍ دافقةٍ وأشعت قسماته الشاحبة، أنتصب من استلقائه على عشب الحديقة قائلا:

- سلام سمعتُ خبراً لو تأكد سأكون أسعد إنسان في العالم

كنت مثل أطرش في الزفة

فسألته:

- غير تفهمني شني الموضوع؟

فقال وهو نشوان:

- سمعت رياض أنفصل عن زوجته!

و"رياض" صديق مشترك، شاعر غنائي

سألته مبهوتاً:

- وأنت سعيد لهذا الخبر.

- وهل في الحياة أسعد من أن ترى شخصًا تكرهه تتحطم حياته؟

من تلك اللحظة شب سور بيني وبينه، ولا أعرف أبداً كيف يكتب من له هذا التكوين الشائه شعراً جميلاً فيه معاناة إنسانية.

مات وحيداً بشقته قبل سنوات.
مات مبكراً وبيننا جدار.

13-1-2019

12- الشيوعي القذر

عدت من زيارتي الأولى للعراق عقب الاحتلال الأمريكي 2003، مكتظا بتفاصيل ما حدث بأمكنة النشأة وما صارت إليه الحياة وعائلتي الكبيرة في الديوانية، وفي ذهني العديد من مشاريع الكتابة حول ذلك.

مرّتْ سنة كاملة وصديقي الكاتب الذي كان متحمساً بشدة لزيارة أهله في العراق يتصل بي ويسألني عن الأوضاع والناس والأمكنة دون ذكرٍ لنيته بزيارة أهله، انتظرتُ أن يبادر

ويخبرني عن السر دون جدوى، إذ لم يتطرق للأمر، ولم يُلمح له، وحينما أقدم لأدخل في هذا الموضوع يلزم الصمت، فأدرك أنه لا يود الخوض فيه فيموت الموضوع. أعرف بعمقٍ مدى حساسية الشاعر فكيف بشاعر وقاص وروائي منطوٍ في عزلته في مدينة دنماركية بعيدة عن العاصمة ويطل على العالم من خلال الكتب والعلاقات الوهمية عبر الإنترنت.

زاد فضولي مع استمراره بتجاهل إشاراتي والهرب منها في أحاديثنا التلفونية اليومية، ولما كنتُ من البشر الذين يضيقون بالأسرار وبكتم صديقٍ قريب جدا لشأنٍ خضنا به كثيراً تصوراتنا عن عودتنا بعد منفى ربع قرن وخيالاتنا العجيبة، ونحن نتبادل مخطوطات رواياتنا ونصحح لبعض، ونغوص في أعماق الإنسان كلٍ بطريقته وأسلوبه، لم أتحمل، سكرتُ سكرةً واضحةً واتصلت في ساعةٍ متأخرةٍ من الليلِ ودون تحية سألته:

- حميد ليش ما سافرت للعراق لحد الآن؟

صَمَتَ لدقائق سمعتُ فيها تردد أنفاسه المتسارعة خلال سماعة الهاتف المنزلي، فأعدتُ السؤالَ،كان أكثر حماسة مني لفكرة الزيارة ورؤية ما جرى لرحمنا الدامي في غيابنا الطويل، صغت السؤال بطريقة تخفف عليه عناء الشرح:

- حميد ما أريد تشرح بس خبرني السبب بكلمتين!

طال صمته دقائق قبل أن يصلني صوته غاضباً فيه مرارة:

- بسبب أخوي الكبير اللي عايش بروسيا!

- شنو علاقة بالموضوع؟

- تعرف أش سوه هذا الشيوعي القذر؟

كدت أهدر بضحكتي العاصفة المعروفة فهذا المصطلح "الشيوعي القذر" أستخدمه البعثيون والقوميون في صراعهم مع الشيوعيين زمن عبدالكريم قاسم، وشاع في أعقاب انقلابهم الدموي في 8 شباط 1963، وها هو حميد الاشتراكي والماركسي الإنساني ينعت به أخاه الكبير، ضبطتُ نفسي بعناء كي أسمع بقية القصة فسألته:

- ما علاقته بفكرة زيارتك، تحجز وتسافر!

- ...!

أخوه شيوعي مخضرم ممن لزق في الدول الاشتراكية القديمة، بعثه الحزب الشيوعي العراقي في زمالة فعشعش هناك،تزوج ولم يغادر لأي مكان، تخلص من التجربة المسلحة التي سحبت العديد من الدارسين السذج، كان حميد يزوره بين سنة وأخرى ويشكو لي منه ويصفه بالسكير والمدمن ويقص طرفاً من سلوكه ومشاكله في حواراتنا الطويلة،لذا استغربت، فما علاقته بالعراق وسفر حميد المتعطش كيانا وفكرا وحساً وانشغالا في الكلام في القصيدة وفي كتاب سيرته المهم الذي أصدره قبل أعوام.

لزم الصمت فكررت سؤالي:

- حميد ما جاي أفهم شنو علاقة أخوك بزيارتك للعراق؟

نفث حسرة وجاء صوته مكسورًا وبه غضب:

- أخوي الشريف زار العراق قبلي وأول ما وصل جمع

أخواني وأخواتي وطلع كتابي "أصغي إلى رمادي" من حقيبته وفتح صفحة فصل "بزون" وقرأ لهم الفصل جملة.. جملة، فَخَبْلُهُمْ!

أرجعني إلى ذلك الفصل المثير والمكثف صَوّرَ فيهِ "حميد" أباه واسمه "بزون" بعمق وصدق ومن زوايا تحرمها التقاليد العائلية العراقية الصارمة. صوّرَ ضعفه، هزالة شخصيته، بمرارة فيها ألم خفي لا يفهمه القارئ السطحي أو غير المتأمل، فالكاتب رسم لأبيه صور تضاعيف ذلك الضعف في الحياة وخصوصاً أمام "أم حميد" قوية الشخصية، ذات السطوة، والويل لمن يقع تحت سطوة زوجة متسلطة ويستسلم،وصفهُ في أقصى لحظات عجزه في مواجهتها كيف ينهار باكيا ويرفع طاقيته لينهال ضرباً على رأسه، التفاصيل العظيمة التي صورها في سيرته المثيرة صارتْ وبالاً عليه، وأخوه الشيوعي المترف الذي وصفته لي زوجتي في مراسيم دفن "حميد" ببدلته السوداء الرسمية وشاربه الكث وجدية ملامحه أراه الآن وأنا أكتب يتوسط العائلة في بيتٍ وسط "الكوت" ويقرأ لهم ما كتبه الابن عن الأب والأم.

تصورت المشاهد والتفاصيل في فاصلة الصمت فقلت لحميد:

- فهمت حميد لكن أش صار بعدين؟

- كنت على وشك حجز تذكرة السفر فاتصلت بأهلي، ولم أكن أعرف بالقصة، فجاوب أخي الصغير بكل برود:

(هو أنت عندك أهل... أحنه أصلا متبرين منك وياريت ما كِنْتْ ابْنّه)

وأغلق التلفون بوجهي، فألمن أروح للعراق سلام ألمن!

أنهيت المكالمة وغرقت في تأمل عذاب صديقي الذي كَتَبَ جلّ أشعاره عن العراق وطنه، وعن حياته، وعن معاناة ناسه في قصصه ورواياته، وها هو يجد صداً من العائلة ومن سبب ذلك شقيق يشاركه الدم والأفكار والمنفى والقضية المفترضة، ومن رفض قبول قدومه أخوته وأخواته الذين كان في أشد الشوق لهم. أعتكف "حميد" محزوناً وكتب رواية "أقتفي أثري" فكرتها مجموعة مغتربين عراقيين تحاول زيارة العراق أول أيام الاحتلال الأمريكي 2003 عبر الوسائل البرية فتتيه في الصحراء مصوراً توقه المستحيل في زيارةِ مرابعِ طفولتهِ.

* * *

بعد عقد من السنين أتصل بي "حميد" وأخبرني بأنه قادم إلى كوبنهاجن في زيارة عمل، فالتقينا في شارع المشاة،غرقنا كشأننا منذ سنين طوال في حديث الأدب والكتب والمواقف، وما نكتب والأفكار والمشاريع ثم عرجنا على مغامراته الجنسية السرية التي حينما يحدثني بتفاصيلها، أموت ضحكاً،فحميد لا يعرف المرأة بعمق لا جسدا ولا نفساً وهذا يدركه القارئ في نصوصه بالرغم من اكتظاظها بالجنس المجرد من المشاعر،فهو محروم لم يلمس امرأة حتى سن الثالثة والثلاثين عكسي تماماً فأنا ضاجعت صبية في الثامنة، كنتُ أموت من الضحك وهو يصور لي مشاعره في خياناته الزوجية.

انتبهت فجأة فسألته:

- صدك حميد شنو شغلك بكوبنهاجن

- جاي أسوي وكالة لأخوتي

- مال شنو؟

- مو تعرف عندي أخوي شهيد شيوعي وطلعت قطعة أرض إله سويت تنازل لأخواتي بالسفارة

- وبيت أهلك

- مو هذا أخوي الشيوعي النظيف اللي يزورهم كل عام قشمرهم وحوّل البيت باسمه وهسه يريد يطلعهم من البيت، فيردون يبنون بيت الشهيد.

مات حميد قبل عامين بغتة، وفي قلبه حسرة العراق.

21-6-2019

13- حفيدتي

عشت بالرغم من كل شيء

وصار لي أحفاد يزورونني في عطلة الأسبوع.

همسة حفيدتي الكبرى بلغت العاشرة. علّمتها السباحة في المسابح وشواطئ البحر، وصارت أكثر من صديقتي، حتى إن زوجتي مرة اعترضت على مناداتها لي باسمي، فضحكت قائلا:

- دعيها أن ذلك مبعث سروري.

البارحة أستيقظنا باكراً، وكالعادة أدعوها لتساعدني في إعداد الفطور، مساحة لا يسمح لها ابني وزوجته بها.

قبل أن ندخل إلى المطبخ. كنا في الصالة، قلت لها:

- جدو لازم أخذ أدويتي!

انحنيتُ ومددتُ ذراعي تحت الطاولة لأخرج سلة خوض فيها أدويتي، كانت تنظر إلى ما أحمله بعينين قلقتين، وفيما كنت أخرج الأقراص من أغلفتها، كولسترول، ضغط، سكر، قلب، و.. و.. سألتني:

- جدو ليش تبلع هذي الحبوب؟

- لأني مريض جدو.

- وإذا ما تبلعها أش يصير؟

وهنا تسرعتُ في إجابة غير مناسبة:

- أموت جدو!

فانفجرتْ ببكاءٍ مهضوم وهي تهذي:

- لا جدو.. لا جدو ما أريد تموت.. جدو أحبك.. أحبك.

وقفزت لتعانقني.

الدنمارك 2016

14- حفل حب عائلي

يزورني أحفادي بين الحين والحين، فأستمتع معهم برواية قصص أنسجها من وحي اللحظة، يعشقون ما أقصه وحينما يطالبوني بإعادتها لا أتذكرها فأروي لهم مايعنُّ لي تلك اللحظة؛ قصةً جديدةً، حكاية قديمة، طريفة، وتلك اللحظات غاية في المتعة وأنا أتفحص تلك الوجوه البريئة النابعة من جسدي والمصغية بذهول ودهشة.

بعد أن هدأت ضجة أخوته أقترب مني "سيف" وشاورني:

- جدو عندي شغله خاصة وياك!

سررتُ بذلكَ، فهاهو حفيدي ابن العاشرة صارت لديه أسرار. طلبتُ منه الكلام، لكنه رفض قائلا:

- لنذهب إلى الغرفة الأخرى.

أغلق الباب، جلس جواري على السرير، قدمَّ كثيراً عن ضرورة عدم معرفة ما يودّ قصه وخصوصا أخته التي تذهب معه إلى المدرسة لأنها ستخرّبْ الموضوع، قلت له:

- جدو لا تعيد.. سولف ما هو الموضوع؟

- رجعت للصف من الاستراحة فلقيت ورقة على كرسيي، فتحتها كان مكتوبًا عليها جملة بالدنماركي "أنت طيب ومؤدب وأنا أحبك" إذا توافق أشّرْ على واحد من الاحتمالات،

حرك يديه ليشرح لكنه عجز فأسرع خارج الغرفة وجلبَ ورقةً وقلماً ورسم ثلاثة حقول معرفة بـ

١- حبيب ٢- صديق ٣- لا

ورفع رأسه عن الورقةِ ونظر نحوي بعينين متسائلتين:

- أش تگول جدو على من أؤشر؟

درسنا الأمر، و"سيف" محاور ذكي أستبعد فكرة أن يكون مقلباً من زملائه، وأكد لي بأنه يعتقد واثقاً بأن صاحبة الورقة زميله له،للحظة فكرت في طفولتي الجافة في مدارس تخلو من البنات، تعلم فيها العراقي قساوة القلب فيظل يحلم بالمرأة التي ستستحيل لغزاً فعليا، إذ لم أختلط حقا مع النساء إلا حينما

جاوزت الثامنة عشرة ودخلت الجامعة،حينما كنت في سن حفيدي أحتلت البنات أحلامنا، تعلقنا بهنَّ من بعيد، كتبنا رسائل لا تحصى، حلمنا بالنظرة والضحكة وجواب التحية ولو من بعيد، وفي المراهقة هلكتنا العادة السرية والتلصص والأسرار،طال شرودي أفقتُ وهو يربت على كتفي:

- ها جدو أش أجاوب؟

نظرتُ إليه طويلا وشعرتُ بغبطةٍ ونشوةٍ فريدةٍ لكوني لجأت إلى هذا البلد وخلّصت أحفادي من كل ذلك العنف والعسف والحرمان والتشوه النفسي والبؤس،بغتةً وجدتني أتوهج بفكرة وقوع حفيدي بالحب وفي هذه السن مثلي تماما، لكنه هنا سينعم بعلاقة حقيقية يومية لا يمانع فيها أهل البنت بل سيفرحون بحبيب ابنتهم وسيحل ضيفا عليهم ويبات عندهم، فقلت له:

- ضع علامة على حقل حبيب!

- جدو مو أني ما أعرفه منو من بين زميلاتي

- من هي أكثر وحده تحكي معكَ وتساعدك بالصف؟

- ناتاشا جدو!

- إذن هي!

انفرجتْ قسماته وأشرقتْ عيناه لتخميني،فراح يحلل الأمر، ويتذكر أشياء حتى بات متيقناً بأنها هي لا غيرها،قبل أن نخرج من الغرفة أعاد توصيته بكتمان الأمر عن بقية العائلة التي تنتظر خروجنا، طبعا لم أفِ بعهدي، كنت أريد كسر فكرة الأسرار لديه كي يفعل كل شيء تحت الشمس ولا يخشى أحداً،

فتحلقت العائلة حولنا، وأصواتهم تتقاطع بإلحاح حول السر، قليلا قليلا درت حول القصة ثم كشفت السر فضجوا في الضحكِ وبدأ النقاش حول الحب والصداقة وسيف.

من يومها وأول ما يدخل البيت يختلي بي ويحكي لي تفاصيل علاقته، أخبرني يوماً أن لديها دراجة هوائية جميلة،فيستعير دراجة أخته ليخرج معها في نزهة وأبدى خجله من سخرية زملائه لأن الدراجة نسائية.

نهار البارحة اشتريتُ له دراجةً لأعّضد حبه قائلا مع نفسي:

- حفيدي دخل دوامة الحب المدوخة التي مازالت تعصف بيَّ وأنا تجاوزت الستين، ليكون الله في عونه وأمه أخبرتني بأنه صار أحيانا لا ينام الليل.

17-3-2018

15- الأحد يجلس جواري

قال صديقه الشاعر:

-أتسافر معي إلى "بودابست" عندي أخ مقيم هناك.

- وتحتاج تسأل هيا بنا!

وأطلق ضحكة عاصفة.

إلى جانب الفتحة الغربية لقطار الأنفاق وسط "بودابست"، وفي منطقة تدعى (Utarut) انزوى مع الشاعر وأخيه في ركن

يشرف على مدخل البار وخلف ظهورهم يجري "الدانوب" مضاءً بفيضِ الأنوارِ الهابطة من شاطئيه. انغمر كعادته في ممارسة هوايته المفضلة الفرجة، شارداً، عازفاً عن الكلام، محلقاً في البعيد. همس له الشاعر:

- أنظر! من دخل!

التفت، كاد يقفز من مكانه، وصاحبه يهمس:

- اهدأ!

لم يلتفت إليه، ظل يحملق مضطرباً بقامتها المهتزة كمهرة تمشي على مهل قاطعة المسافة بين الباب الدوار وناصية البار العالية. لم ينتبه لرجلٍ بصحبتها. ثنت ذراعها الأيسر واتكأت على سطح الناصية رافعة كتلتها الرشيقة لتجلس على المقعد العالي،أصبحت بمواجهته على مسافة أمتار، نفس الملامح المخيفة بسكونها وبياضها وسعة عينيها، والشعر الأسود الكثيف المنحدر حتى الخصرهادراً يمور جوارها على كرسي البار،سينهض ويخطو نحو ليله ويلقي بنفسه فيه ويغيب.

- أش بِك صرت أخرس!

- ...

- ما تعرفها فتاة الأحد!

- ...

حينما سَافَرَتْ صار الأحد خاوياً كأنهُ النهاية فأمسى يحدق بالمرأة البديلة، يغلي، يغادر الأريكة، يكبس زر الإقفال،

باتتْ الأفلام دونها بلا طعم، يحدق ويصغي للأخرى شارداً، وخيالها يتموج على سطح الشاشة جميلاً لا يظهر لسواه،

لم يستمر ذلك الوله والشرود غير فترةٍ وجيزةٍ، قامت الحرب مع إيران واضطرب كل شيء، وفي غمرة ذاك الهياج والضجيج والموت القريب تعرف إلى صبيةٍ صارت ملجأه الدافئ تحضنه مخففة من وطأة تلك الأيام، ضمته إليها عشرين عاماً وأخذته إلى مناحٍ لم يكن يحلم أو يتخيل أنه سيحّل فيها، أرته اللذة والويل ثم لفظته في خريف العمر وحيداً منهكاً على رصيف المنفى ينوء بثقل ماضٍ دامٍ، فأدمن الوحدة والكأس، ومن كثرة ما كان يكلم نفسه عاد يكلم الناس بالطريقة نفسها.

أبحر في كتلتها المصبوبة صباً وهي منشغلة بالحديث مع رجل يظاهره. كانت تبدو مرحة، منسابة مثل ساقية بستان، ورويداً.. رويداً تحول جليسها إلى مجرد كتلة لا ملامح لها، ليس جليسها حسب، بل الموجودات كلها بدتْ غارقةً بالضباب في حضرة وجهها الناصع الأليف! كان صديقه يقول:

- ما تذكرتها؟

- ...

قال مع نفسه:

- ماذا أقول له؟ هو لا يعرف مبلغ اضطرابي في تاسعة مساء الأحد، كنت أتوتر مخافة انقطاع البث، وعندما تعّطل تلفاز أهلي ذهبت إلى بيت أقرباء لي في محلة نائية كي أشاهد البرنامج عندهم ويقول ألا تتذكرها؟، أنها غافية في ناحية مغلقة من قلبي

لم يعرف عنها أعزّ مخلوق حتى زوجتي التي لفظتـني في خريف العمر!

قال:

- أتعرف كنت هنا في زيارة لأخي يوم زواجها في 1988

- ..!

كمن أُغْرِزَ في قلبه نصلاً، التفت متسائلاً:

- تزوجت؟

- نعم

- ..

سحرتهُ قسماتها المتألقة تحت ضوء السقف الفضي الخافت الساقط على موقع جلستها، ضوء يشبه أحلامه بها في الأمكنة والتواريخ حيث كان يتلذذ بمرأى عينيها وموج شعرها الأسود وشكل أصابعها الناحلة في ليل جبهة الحرب، وفي ليل المنافي العديدة.

- سر من أسراري يشرق بغتة في بار!

هتف مع نفسه، بينما صاحبه يقول:

- زوجها مجري!

- حسنا فَعَلَتْ أكثرنا تحضراً يكمن في داخله بدوي جلف!

أمعن محدقاً في قسماتها التي أكسبها خبر زواجها عمقاً جديداً وهي تعلو في جلستها على كرسيها المرتفع كتفاحةٍ أنضجها

الخريفُ، فتجّلى جمالها البري المُخّمر بالعمرِ والتجاربِ وليل سرير الزوجية، القسمات نفسها ساحرة مدوخة لفظتْ براءتها وتلونتْ بتجاربِ الفراشِ وليلِ اللذةِ السائحةِ من عمقِ الروح في ليالي السرير.

- هل تعرفها من قبل؟

- ..

دَسَّ يده في جيبِ معطفه الداخلي وأخرجَ قنينة عرقٍ وصبَّ كأساً رشفهُ دفعةً واحدةً، ليعيدها إلى مخبئها بينما عيناه تلاحقان كتلتها المُضاءةُ، قدميها الموضوعتين على مسند عرضي للكرسي الصغير العالي، ساقيها الرشيقتين المحشورتين في سروالٍ أبيضَ شديد الضيق يكشف دقة تكوينهما، وخصرها الضامر تحت قميصها الأحمر، وعنقها الطويل الناصع كأنه من مرمر لاهث البياض،صب كأساً أخر مستغلاً انشغال النادلة الشقراء، وعَبّهُ دفعةً واحدةً أيضاً غير آبه لخشية صديقه:

- راحْ تسْكَرْ!

عبّ كأساً آخر فشعر بالنشوة تسري من قمة رأسه حتى قدميه:

يسأل أن كنت أعرفها لا يدري ما فعل بيّ وجودها لا يدري.

هاأنا ذا أرى بوضوح ذلك اليوم الذي وقع بصري عليها أول مرةٍ، كنا في أواخر ستينات القرن المنصرم، كنتُ أعمل صحفيا في جريدة "المنار" وكُلِفتُ بكتابةِ تحقيقٍ عن أكاديمية الفنون الجميلة وسط بغداد، حملتُ حقيبتي وقصدتها، تجولتُ في

أنحائها،وفي ورشة النحت جذبتني كتلتها حال عبور العتبة،كانت في الزاوية المجاورة للنافذة العالية، محنية على شيء لم أتبينه من موقعي، لم يظهر منها شيء، فشعرها الطويل الدامس كليلٍ كانَ ينحدر مغطياً وجهها وطرفاً من جسدها، اقتربتُ من تلك الزاوية ببطء وخشية، صرت على بعد أربعة أمتار فنفضتْ شعرها وهي تستقيم وبين يديها طين الخلق،التفتتْ نحوي، فغرتُ فمي مشدوهاً، شعرها تناثر في فضاء المشغل وهبط كانحدارِ قطيع ماعزٍ جبلي خلف عنقها الطويل،أحسستُ بجسدها الغض الشفاف يرتجف ويكاد يتبدد من قوة نظراتي قلت لنفسي:

- هنا مقتلك يا مسكين!

انتصبتْ قامتها كرمحٍ فنهض الكون، وجدتني ضئيلاً ضائعاً ألتهمُ قسماتها الجميلة، عينيها الواسعتين الودودتين، إيقاع الكلام المحتشد خلف بشرتها الرقيقة، كانتْ تتبسم وكأنها تعانق فجراً، ألقيت التحية مرتبكاً، فردتْ بخفرٍ ونبرة صوتٍ زادَ من ارتباكي،عرّفتُ نفسي وبينتُ مقصدي فرحبتْ، سألتها عن فن النحت، فكلمتني عن الطين، كنتُ مشدوهاً في كتلتها المبهرة وصوتها الأقرب إلى هديل حمامة، تأرجحتُ على حافة الفيض، تمنيتني في خلوة لأبكيها، لكن كنا نقف وسط المشغل والطلبة منهمكون في شؤون الطين، تبددت تفاصيل المشهد لاحقاً وبقت يداها بأصابعها شفافة الجلد إلى حد كنت أرى دمها القاني يجري في عروقها، وشكل بدلتها الملطخة بالطينِ، باختصار شديد ما تبقى هي كتلتها التي أعطبت أيامي.

كانت تبدو طيعةً لينةً قادرةً على احتواءِ رجال العالم، ظننتُ

بها هكذا في اللحظات التي وقفتُ أمامها في المشغلِ، لكنني كنت شديد الجبن بالرغم من أنها أحستْ بارتباكي وأطلتْ على أشواق عينيَّ المدهوشتينْ.

لكن من أين آتي بالشجاعة، وماذا أقول وكيفَ؟

بعد حمى التواجد في الأكاديمية الذي أستمر شهراً أدمنت فيه أشكالها المختلفة في أثوابها وحالاتها انقطعتُ تماما حينما استدعيت لخدمة الاحتياط فتصورت أنني برأت منها،عادتْ مجرد خاطر يرتجف له القلب حينما يخطر بغتة في السكر والصحو، في اليقظة والأحلام.

في يومٍ أطلت من شاشة التلفاز لتقول أنها ستظهر مساء كل أحد محولةً أيامي إلى مجرد انتظار، فالأسبوع صار ثقيلاً حتى تاسعة مساء الأحد،أجلس مثل أخرس أمام الشاشة أتتبع ساهياً خصلة من شعرها تسقط بغتة أثناء حوارها مع ضيفها قبيل عرض فلمٍ، تزيحها بكفها تارة أو تنتفض بحركة خفيفة مثل مهرة تجفل، وتظل الخصلة تلاعبها تسقط وتدفع، تتدلى وترفع، وقلبي يتأرجح،لم أنتبه مرة للحوار ولم أفهم ما يقال، صرت "عبد الأحد" وصارت نجمتي بعيدة مستحيلة مع تألقها وازدياد المعجبين بها، كنت أرى حشد المثقفين والكتاب والسياسيين المحيطين بها فأقول:

- أين أنت منها؟

أخاطب نفسي وأطلق حسرة، أمسى الأحد سلوتي، ودأبت على تجميع صورها من الصحف والمجلات، أجمّعها في زاوية من حقيبتي كاتماً سرّ تعلقي بها. سرٌ لو أبحت به لأقرب صديقٍ

لسخر مني بالتأكيد، وقليلا قليلا أخذتني مشاغل الحياة فنسجتُ يومي دونها، ظننت ذلك، لكن في يومٍ أخذني صديق سيقتل بالحرب مع إيران، كنا نسكن فيه مشتملاً مقابل معمل القطن الطبي بظهر كلية الآداب وسط بغداد إلى أسبوع الفلم الإسباني إذ حصل على تذكرتين وأخبرني بأن الأفلام مترجمة للإنكليزية وسيترجم لي فوراً، وجدت الأمر معقولاً، ما حصل بعد ذلك لا علاقة له بالعروض، فبينما كنا ننتظر فَتْحِ باب الدخول رأيتها واقفة مع أربعة رجال، كانت ترتدي سروالاً أزرقَ بلون البحرِ، وقميصاً من ماءٍ يسبحُ فيه سمكٌ أزرق يتموج كلما ضحكتْ أو تحركتْ، وجدتني أقترب مخدراً من موضعِ وقفتها، تقدمتُ ببطءٍ شديدٍ حتى أمسيتُ على مسافةٍ تتيح تفحص ملامحها، عينيها، حركة جسدها الفتي النابض تحت موج زرقة ردائها. امسكني صديقي من كتفي قائلا:

- إلى أين؟!

- لا تخفْ.

- بلا مشاكل!

تبسّمتُ قائلا:

- لا تخفْ!

أنه يخشى حماقاتي الكثيرة، مرةً داعبتُ شعر فتاة وجدته يتدلى متأرجحاً جوار أصابعي في حافلة مكتظة،لمسته كأنني ألمس شباك وَلِّي من أولياء الله، ومواقف أخرى مشابهة، فوقعنا في مشاداتٍ عاصفةٍ وعراك يفضهُ غالباً إما بالكلام أو بالعنفِ

فهو بالإضافة إلى عزفهِ على العودِ وصوته العذب ملاكماً بارعاً،أفلتَ كتفي،طفتُ حراً في غمرة أضواء الفسحة الواسعة أمام قاعة العرض، اقتربتُ، كانت منشغلة تماماً بالكلام مع الرجال الأربعة الذين تحولوا إلى كتلٍ مبهمةٍ جوار قامتها المشعة، كنت أشعر وأتوهم بأني وحدي من تراه وأن لم ترني، فرصة فريدة أتاحت لي تأملها عن قرب وبدقة، خطوتُ نحوها، أمسيتُ على بعد أمتارٍ فتجسّدتْ قسماتها الجميلة في وضعٍ وجدتهُ مختلفاً تماماً عما تظهر عليه في إطلالةِ الأحدِ، ملامح من لحمٍ ودمٍ إذا مددتُ أصابعي أستطيع لمسها ولا يصدني زجاج شاشة التلفاز الصقيل، رأيتُ على الوجنتين حبيباتٍ ناعمةٍ، قلتُ مع نفسي:

- يمكن محرومة تمارس العادة السرية كثيراً!

- دعْ ذهنكَ الفاسق!

اقتربتُ على بعد مترُ ونصف منها، لا تدرك فورة روحي بها، هي الضائعة في بحر العيون المحيطة، أستطيع سماع أنفاسها، التفتُ نحو صديقي فوجدتهُ يلاحقني بعينيه القلقتين، قلت لنفسي:

- إنها فرصة سأتفحصها من كلِ الجهاتِ، ففي الشاشة لا أرى إلا ما يريد المخرج إظهاره!

أصبحت خلفها فوجدتني أغرق في ليلِ شعرها المنهمر بصخب حتى حافة الكفل، حرنت عيناي فوق قبته وهتفتُ مع نفسي:

- هنا موتك!

كانت منشغلة بالحديث مع أصحابها، قلت:

- لو تعرّفتْ عليّ لتشبثت بيَّ وعافت الكل!

كنتُ واثقاً لا أدري لماذا ومن أين أتتْ تلك الثقة، لكنه خاطر غامض تألق لحظة انزلاق عيني مع موج شعرها الناعم الهابط حتى الردفين، كنتُ غضاً متوهجاً جاوزت العشرين قبل سنواتٍ ست، مكثتُ دقائق أتملى تضاريس قامتها من الخلف، جنون الشعر الحالك الهابط، موج الجسد في القامة المنتصبة، موج الشعر عند الضحك، دقائق كأنها الأبدية،

كنتُ أشعر بغبطةٍ لا يفهمها سواي، غبطة ترطب روحي، هاهي تقف بلحمها ودمها على بعد أمتار بسترتها البحرية الزرقاء الضائعة بموج شلال شعرها الأسود الهابط إلى حافة منيتي، درت، أمسيتُ في مواجهتها وهجمتُ بعينيّ النهمتين على كتلتها، في تلك اللحظة وقع بصرها عليَّ، أختل توازني للحظة كأنني أتأرجح على حافة العالم،لم أتماسك إلا بعناء، وما إن تثبتُ حتى جعلتُ أحدق في عينيها الواسعتين، رأيتها تضطرب وتتشتت بالكلام قليلا، أمعنتُ النظر فيها، نفضتْ خصلةً سوداء تدلت أمام ناظرها، تخيلتها تغور بيّ بالرغم من أنها تبدو منصتة إلى حديث الرجال المحيطين بها، خدرتني فكرة أنها منفصلة عنهم ومشغولة بيّ، أمعن فيها وأعيش مشهد مشغل الأكاديمية.

- هل أدركت شراسة مشاعري المجنونة بها؟

- هل تذكرتْ وقفتي المذهولة أمامها بيديها المغموستين بطين الخلق في المنحت قبل أعوام؟

افترضتُ ذلك في قاعة الانتظار خارج الصالة، ورأيتها تشخص بنظرها نحو قامتي المشدودة الطويلة المتوترة على مسافة أمتار فشعرتُ كأنني ألمس كتلتها الباهرة بأصابعي، الشعور نفسه بعد أكثر من عشرين عاماً، أجد نفسي في مواجهتها باغتتني في بارٍ وسط "بودابست" أنضجها خريف العمر، شديدة البهاء بصحبة رجلٍ مبهم الملامح يظاهر جلستي فجعلني أتوحد فيها

- لو نهضت واقتربت منها هل ستتذكر وقفتي في المنحت وفي زحمة قاعة الانتظار!

قال مع نفسه ومدّ يده إلى جيب معطفه الداخلي، اخرج قنينة عرق صغيرة مفلطحة وعّب منها خلسةً.

- سكير أصيل!

علق "حميد" وهو يراقب حركته المباغتة الخبيرة، رد بنشوة:

- صعلوك

نطقها بطيئةً.

- سأقوم وستعرفني!

هتف مخاطبا نفسه مشجعا إياها لكنه تريث قليلا وقال:

- سأنتظر بعد الجرعة التالية!

تشبث به ممسكاً بذراعه:

- وين رايح وين؟

كان يتأرجح، فلَّ بهدوء أصابع صديقه قائلا:

- لازم أتشوفني لازم!

لم يأبه بخشية صديقه وتذكر كم مرة ذكرها وتمناها كلما تحدثا عن السينما وتلك الأيام حينما كانا طلبة جامعة في بغداد، ولم ينس جملته الأثيرة:

- تعرف اللي يضاجعها يضاجع الثقافة العراقية والسينما وكل إناث العالم!

فأنفجر بنوبة ضحكٍ عاصف من مخيلة صديقه المحروم.

قال مع نفسه:

- يغار.. صديقي الشاعر الخجول يغار!

لم يستطع التوضيح كيف يتخيل أنها لو تراه مثلما يراه أصدقائه فسوف تعثر على بابه وتضيع، ليس باستطاعته الشرح، حتى لو أفلح سيضرم نيران غيرته.

تدخل أخو الشاعر:

- يمعودين زوجها وياهه!

علق مباشرة ليخفف من التباس الموقف:

- جاي أمزح!

- ...!

وأكمل:

- رايح للتواليت

قال ذلك وتقدم ببطء، كان يقترب من حتفه، من موقع جلستها جوار ناصية البار العالية، رشيقة تتموج قامتها على كرسي البار العالي، أقترب.. أقترب طائراً بأجنحة الخمرة وأحلام الماضي البعيد معها، صار على مسافة ثلاثة أمتار، نفس مسافة مهرجان قاعة السينما قبل أكثر من عشرين عاما

- هي غير تلك وأنا غير ذاك!

قال مع نفسه وهو يقيس الأمتار التي تفصله عنها.

تلكأ أمامها عاجزاً لا حول له ولا قوة، هل لاحظتْ ذلك فرمت بصرها نحوه عبر كتفيّ جليسها فسمرته في الفسحةِ الضيقةِ بين مناضد البار، عيناها الواسعتان لمعتا ببريقٍ، وقفته غير مقبولة، تحرك ومرّ جوارها متحاشيا النظر، حاذاها فضمخته رائحتها المتدفقة كنسيم فعبَّ منها عميقاً، داخ فتمايل مثل من يدخل غيبوبة، تماسك ساحباً جسده من مجرى نسيمها المهلك.

- أشعل الدنيا إذا ما أحكي معكِ الليلة!

هتف بصوت هامس حال خروجه من باب التواليت.

- لكن أشلون؟

لم يعد إلى طاولته، أنتقى مكانا يقابلها بالضبط، استرخى إلى مسند الكرسي العالي، أراح رأسه وجعل يحملق فيها. كان قريبا يسمع حديثها،أنصت إلى نبرة صوتها الناطق بلغة هنغارية مبهمةٍ بالنسبة له وهي تحدث جليسها،أنحدر مستمتعاً بأخيلةٍ

تخمن حسب هواه كلامها وقارن بينها وبين طلتها من شاشة الأحد في تلك الأيام، فوجد المتعة بهذه اللحظة تفوق تلك، ها هو لا يحتاج إلى التفكير بمعنى الكلام،أنحدر مع النغمة وسحر التقاطيع وهي تنطق لغةً مبهمةً، متعةٌ من متعهِ الخاصة "مراقبة وجوه النساء الجميلة"أدمنها في كل مكان قطارات بارات مقاهي في الدول التي مرّ بها من إيران إلى موسكو إلى السويد إلى المجر، هاهي تفاحة ناضجة سقطت للتو من الجنة تتألق على مسافة أمتار من جلسته، لم تكف عن التحديق فيه بين فسح الكلام بعينين خبيرتين وكأنها تضعه في ميزان.

همس مع نفسه:

- أنضجها المنفى وعمّق جمالها!

وتخيل رحلة نضجها التي أَخّرَتْ زواجها حتى سن الأربعين في هذا البلد المفتوح، تخيلها تنغمرُ في المتع واللذات العابرة في مساس الأجساد حد الشبع والتطهر من قيم العراق القامعة لتخرج من ذاك البحر الحر ناصعةً مثل وردة، وبالخبرة نفسها وَجَدَتْ في رجلٍ هنغاري محطتها التي ظنت أنها الأخيرة.

- كل ذلك صحيح.. بس

قال مع نفسه في شطح سكر:

- لم يمس عالمها رجلٌ!

رشف مزيداً من الخمر الذي صار ماءً.

- لم تزل عذراء!

كاد أن يهتف بصوت عالٍ لكنه تدارك الأمر في أخر لحظة،

كانت ترمقه بعينين ودودتين كأنها عرفت ما من هو وما فيه.

- أنا السكير الصعلوك ا

لكاتب المتمرد المتشرد الحالم

وحديمن سيغور فيك

يشعرك بكيانك المصفى

من أغراض الدنيا!

أنشد مع نفسه مع تفاقم نظراتهما التي تشابكت وجعلت حديثها يبهت مع جليسها الذي لم يرَ ملامحه ولا يريد ذلك، تخيلها ملامح شرق أوروبية فيها جمال وفحولة طافحة نمت في بيئة لا علاقة لها فيها،فأين له فض عالم عراقية فادحة الجمال عانتْ وخبّرتْ وخاضتْ وخابتْ حتى قررت طَمر نفسها في أحضان رجلٍ غريبٍ.

- وحدي

أنا الكاتب السكير!

وحدي

أخرسته نظرة خاطفة منها، وما أن انشغلت بحديثها حتى هتف بصمت:

- وحدي من سيفض عالمكِ!

ردد ذلك جازما وكأنه لمس سرها وغار فيه، في شلال شعرها الأسود الطويل وتخيل أنه يدفن وجهه فيه ويشمّ، فشهق مختنقاً في جلسته المسترخية وحلم بها تحضنه وهو يجود بنفسه

تحتَ خيمة شعرها ينازع مبتهجاً بالأخيلة وصدفة ظهور جنية الأحد في خريف العمر، عبَّ نفساً عميقاً، ونفض رأسه خارجاً من عالم الأخيلة فوجدها مشغولة فيه حقا، تشخص بعينيها نحوه بألفة محب..

- روحي وروحك حبايب!

رَنَّمَ بصمتٍ ورمى عينيه في عينيها فجدح ضوء فريد ينبثق من عيون العشاق.

- كل هذا من نسج مخيلتي!

همس وَنَهَرَ أخيلته الطائرة به إلى مناحٍ يجد نفسه فيها مجرد أحمق.

- هل سأرتكب حماقة أخرى؟

- لا.. لا عقلي يقول غير هذا

- ستكون أحمق ككل مرة!

- لا حماقة هذه المرة لا حماقة،سأقع في خريف عمري عليَّ الكامن فيها..

- هيييييييييييه

- دون سخرية هاهي ترمقني بودٍ فريدٍ لم أحس به من أقرب كائن، ود طير تائه وجدَ عشه.

- أحلام يا مجنون أحلام، كاتب عشتُ عبداً لمخيلة الكلمات،أنظر أنها تمارس يومها مع رفيق عمرها وأنت مجرد صعلوك يظن نفسه"دون جوان".. أصح يا مسكين ولك دون

جوان لم يكن سكيرا مثلك بل كان ديكا يوهم النساء بيسر امتلاكه المستحيل

- أسمعوا يا شياطين رأسي أسمعوا..

قال ذلك بهمس خفيف يسمعه وحده ثم أنفجر:

- طززززززززززززبيكم

هي سوف تعرفني دون الحاجة لكلام..

- ستعرفني! ستعرفني!

وشخص نحوها بعمق فوجدها تنصت تارة وتتكلم في أخرى، وفي الوقت نفسه لم تكف عن النظر إليه خطفاً بنظرات سريعة جعله يحلق بعيدا.. بعيدا وينشد مع نفسه بخفوت كأنه يلقى قصيدة:

(هبطتْ عليّ في بارٍ وأنا سكران

هَبَطَتْ لتمحي السنين

وتسكن أَحْدَها

تشعل لحظتي

وتعود بيّ

إلى الرجفة الأولى

ارتباك الخطو

التأتأة في الكلام

وهبوط القلب إلى القدمين)

تخيلها تسمعه وفي عينيها الواسعتين ألق وشوق وشجن،تجلس جواره على سجادة كوخ في غابة، وحيدين على ضوء شموع خافت يتراقص مرتعشاً يموج ملامحها الخريفية ويعمقها، وجد نفسه ضائعاً معها في مناحي الطفولة، كأنها الصبية التي سرق لها وردة جوري من بستان، تجلس أمامه الآن في مدينة غريبة في بيت خشبي وسط غابة، تنصت لهذيان وده السكران.

فزَّ من غفوته وتلمس حافة المنضدة الدائرية، شخص على الفور نحو جلستها، وجدها تحملق فيه بعينين قلقتين، فأدرك أنه أغفى للحظات على كرسيه، ذلك ما جعلها تقلق وتحدق هكذا، همس مع نفسه:

- إذن كانت معي حقا في كوخ خيالي!

حبس ضحكةً صاخبةً تسخر من خياله، وراح يتتبع مجرى حركة أصابعها الصغيرة وهو ترسم شيئا أثناء الكلام،شيئاً جعله يتبدد كائناً من دخان يحط أينما شاء فيمسك أصابعها، ويمسح أظافرها إصبعا.. إصبعا بحنان سكيرٍ وحيد، عبَّ عطرها وتلمس تلمس أعمى ذراعيها حتى الرمانتين غائراً في بحر نعومتها الهادر بسكون، أحنى قامته الطويلة ليدس رأسه تحت إبطها ويستاف من رائحتها عباً،شمها حتى نفذ إلى مساماتها خارقاً أحشائها سارياً في عروقها دائراً في دمها غبار طلعٍ ملقحاً أبعد ذرة في جسدها، من القلب حتى الأطراف البعيدة، من الأطراف البعيدة حتى القلب.

كاد أن يهب من مكانه صارخا في اللحظة التي أتم فيها

الطواف في أحشائها، كاد، لكنه في اللحظة التي أستقر في قلبها وجد نفسه يجلس على مبعدة أمتار من جلستها، وهي تحدق به مبتسمة بسمتها القديمة التي ترسمها حال شروعها في تقديم برنامج أحدها.. صرخ مبتهجا في داخله:

- لكن في هذه اللحظة وحدي جمهورها وحدي.. وحدي!

- سأكلمها!

- مجنون هي لا تعرفك!

- لا عرفتني كنت في مجرى عروقها أدور قبل لحظة!

- هههههههه أخيلة سكير

- أسكت بلا قهقهة!

- يا مجنون سوف تجفل، لم تفهم المرأة بعد!

- أسكت.. أسكت هي ليست مثل النساء!

- ...

- عرفتني هذي اللحظة وكأنها معي منذ الصبا!

- ألم أقل لك أنك مجنون!

- دعني.. أرجوك!

- مجنون!

- وليكن.. لكن حلَّ عني أبوس أيدك!

استدار وغاب.

صرت واحداً صافياً كأنني انزلقت لتوي من دفء الرحم. فرأيتها تحدق نحو جلستي بحنوٍ وكأنها تنتظر قيامي، رأيتها وحيدة وزوجها ذهب إلى التواليت، لم أفوت الفرصة نهضت وتقدمت نحوها بصمتٍ، قطعتُ متراً بخطوتين:

- ماذا سأقول لها؟

في الخطوة الثانية:

- سأعطيها رقم هاتفي!

رميت الثالثة بثقة، صرت في محيط عطرها المخدر، كدت أترنح من ضوعها، من هالة وجهها، من ارتباك حواسي، من سكري، من جنوني، من أخيلتي، تماسكت بعناء، الوقت شديد الضيق،تلفت مذعوراً، لمحت عيون صاحبي الشاعر وأخيه المتوترة المحدقة إلى النقطة التي أنا فيها، سحبت من جيبي ورقة صغيرة بيضاء فرشتها على منضدة البار وكتبت رقم هاتفي، كل شيء جرى بصمتٍ، كانت صامتةً تحملق نحوي بولهٍ شجعني، مددتُ يدي بالورقة، تناولتها بلهفةٍ وأخفتها تحت القميصِ بين مشد الصدر والنهد كعادة العراقية. قلت:

- أتصلي!

تبسمت!

أضفتُ:

- أنتظرك!

اتسعت بسمتها.

رجع إلى طاولة جليسيه،باعدَ ذراعيه غير آبه بالدنيا وصورة أصابعها وهي تلتف حول ورقته برقةٍ وصمتٍ تشَّيدْ لحظته وتبحر به إلى عالم الأحلامِ..

* * *

في بكرة الصباح رنَّ هاتفه الجوال، كان صوتها رخيما عميقا:

- ألو

لم يزل في ضباب السكر:

- من؟

- أ نسيتَ؟

صرخ:

- الأحد.. الأحد!

سقط التلفون من يده إلى هوة سحيقة، رمى نفسه خلفه فأرتطم ببلاط الغرفة، أستيقظ مذعوراً،لبثَ ساكنا للحظاتٍ مطبق الأجفانِ يحاول خزن نبرة صوتها المُبَدَد بضجة السقوط إلى أن عاد، فتحَ عينيه لاعنا هاجس اتصالها شاغل يومه منذ أكثر من سنتين والذي يُرَمِدْه في اليوم الواحد بعدد مرات رنين الهاتف!

أدار طرفه الحزين في أرجاء غرفته المبعثرة، المغبرة، ونهض ليستلقي من جديد على سريره بعد أن شرب كأسا من الماء رائيا قسماتها تطوف ككل ليلة في السقف الخفيض، تبتسم وتدس وريقتهِ في صدرها جوار ناصية البار:

- سيرن الهاتف.. سيرن في يومٍ ما! سيرن.

2005

منشورات «الأيام»

16- كم واحد؟

أقضي وقتاً طويلاً مع أبنائي الثلاثة وخصوصاً قبل النوم، أروي لهم قصصاً أخلقها من مخيلتي، وحينما كبروا قليلا بدأتُ بقص تجاربَ مرّتْ بحياتي، في طفولتي البعيدة، في شبابي، وأحاولُ تخفيف عنف التجارب في البيئة العراقية لكن دون جدوى فالعنف يوسم التفاصيل كلها، القصص والطرائف وحتى النكت.

تطور الأمر، أدركوا أننا كنا ننشط سياسياً وهربنا من

الدكتاتور إلى الثوار في الجبل وأني أصبت بقصف طائرات وعشت معوق حرب بقية عمري عاجزاً عن العمل، هنا بدأت القصص تنحى منحى مختلفاً، وتتأثث التفاصيل من أسئلتهم الذكية، فحكيت لهم كيف كنت إنساناً مسالماً موظفاً في الدولة، وأمهم كذلك،وكنا نعيش بأمان وصنعنا أخاهم الكبير لكن الحرب قامت وساقوني جنديا فيها، اشتعلت مخيلتهم المشحوذة بأفلام حروب الرسوم المتحركة، والحروب الحقيقية التي يشاهدونها معنا في نشرات الأخبار اليومية، أسهبوا في الأسئلة عما كنت أفعله في الحرب، فحكيت لهم عن المدفع، والقذيفة والمعارك وكيف كنت لوحدي أحياناً أقوم بلقم المدفع وتعيين المسافة والرمي،وفي غمرة انفعالي أخبرتهم أنني في ليلة ظللت وحدي أرمي حتى الفجر بعد أن سقط جنود الطاقم إعياء، خوفاً من فرق الإعدام التي تجوب الوحدات في الجبهة، فأبدى ابني الأصغر دهشته وسألني:

- بابا.. بابا.. حتى الفجر!

- أي بابا.

اتسعت عيناه دهشاً وصمت قليلا، ثم سألني بصوتٍ منفعلٍ:

- بابا كم واحد قتلت؟

تَعَطَّلَ وجهي في صمتٍ ثقيلٍ، ومثل أبلهٍ حدقتُ في وجهه الأسمر الحار المنتظر بلهفة، ثم نقلتُ نظري بين أبنائي الثلاثة وأنا في حيرةٍ مثل قاتلٍ أُمسِكَ متلبساً لكنهُ لا يود أن يعترف ولا يدري ماذا أقول؟

3-6-2017

17- غيرة

1-1-00

إذا ما تجاوبين على نباحي سأختفي تماماً ولا تعثرين علي أبداً، أقول ذلك وأرجو أن لا تعتبريه تهديد

لا سأفعله ولولا موعدي بالمستشفى لسافرت وسوف لا تروني لا أنت ولا أبنائنا

ضربتني ضربة ماحقة فاقت كل ما اكتشفته

31-12-00

طززززززززززززززززززززز به

هو لا يصل إلى ظفر من كياني واتساعي

لكن تبا لفضول المرأة وضيقها تفرط بما لديها من اجل خيال طززززززززززززززززززز

31-12-00

أكيد أن هذا التفصيل لم يخطر ببالك عندما قررت مع نفسك سرا وبالخيال أن تلتقي بإنسان غازلك حينما نشرتُ رسائل حبي لك وتجاوبتِ معه في الحوار

أنت تلعبين بالنار

وانا على وشك الطيران

31-12-00

تستطيعين التصرف مثلما تشائين بدون رقابة مثل المطلقات العراقيات هنا حينما تبتين الصلة بي وتكونين حره، أي ليست زوجتي، قد يضايقك هذا الكلام لكن أنت مرتبطة بأسمى

تستطيعين فعل ما تشائين،السفر واللقاء بما تشائين من الرجال لكن دون أن يقترن أسمك بي

31-12-00

أسمعي يا حبي
ليس أنا
من تسافر زوجته
وتلتقي
بشخص تَعَرَفَتْ عليه بالمراسلة
ليس أنا
هذا ما لا اقبله أبدا
هل تقبلين أتعرف على نساء
بالنيت
وأسافر لهنَّ
هل تقبلين؟
أذا كنت تقبلين ذلك
لنتفق
على الأمر
لا تفعليه سرا

وتفاجئني به

فأنت كنت عازمة على اللقاء بصديقك الجميل وأخفيت الأمر ألتقيته

أليس كذلك؟

لماذا أخفيت الأمر عليّ لماذا، تأكيدك بأن اللقاء كان نظيفاً لا يلغي سرية الإعداد له، فهو سرقة إذن والسارق يفعل أي شيء

أليس كذلك؟

أكتب كل لحظة رسالة لأنك خرساء ما أتجاوبين سوى بجملة:

- إني أمراه شريفة وأعمل كل شيء بالضوء

31-1-00

هنا أقول لك كل شيء

وأنا على وشك الاختناق

هل سأختنق الليلة أم لا لا أدري؟

وبعدين راح أشرب وانتحر وإذا صديقي انتحر من اجل ضياع بنته ووضعه البشري

فأنا أموت والسبب أنت فقط

وإذا شفيت منك سأعيش طويلا

لكن من أين الشفاء وأنت تحتلين حتى لا وعيي أحلامي عالمي الباطني

31-12-00

نحن الاثنان سنخسر بكل الأحوال

عولتي على مراسلاتك

والآن

ترين الواقع غير الكلمات

أقول لك بصراحة

وأنا أغور في دوافعك

لا يفهمك كائن مثلما أفهمك

وهذا لا تستطيعين نكرانه

أسمعي

ما سوف أوبأدق ما بدأ يخرب كل شيء هو وضعك لعالم خيالي بديلا لواقعك!

31-12-00

أفكر الآن بمأوى

31-12-00

أنا أفهم الحب بجملة بسيطة

31-12-00

أسمعي
أنا أفهم الحب بجملة بسيطة
مراعاة مشاعر الحبيب العميقة
هل فعلتي ذلك؟
تأملي قصتنا!

31-12-00

والله راح اسحق كل مشاعري وأضيع وراح تشوفين
إذا ما تجاوبين
سأختفي.. سأختفي تماماً
حتى ما تشوفيني

31-12-00

ماذا أكتب لك؟

يامن وضعتني بأسوأ حال!

ماذا أقول لك؟

أنا موشك على الموت

ليس قولا لكن فعلا

وأنت قاتلتي

إذا متُ فعلا فالخطية برقبتك فقط

أنت من طعنني بلب حشاي

لا تجيبين على رسائلي

تعتقدين أن هذا حلا

لا

ليس حل أنت تفاقمين المشكلة، عدت أشرب من بكرة الصباح حتى المساء وأنت السبب

وإذا مت فأنت القاتلة!

مشكلتي أعمق مما يجري في الواقع

أنت تحاصرينني في الحلم

وبت أراك كل ليلة

في أمكنة وأوضاع وحالات مختلفة

أنكِ تمعنين بإذلالي

16-10-2021

جنود وثوار

منشورات «دار الأيام» AlAyam

منشورات «دار الأمان»

1. الله والحرب

إلى: مازن جلال

- سلام ما عندك روحه لبغداد تره بكرى مغبش!

- أي.

وافقت على الفور!

بكرنا معا في سيارته المرسيدس القديمة. لم يسلك الطريق السريع الموحش، بل أخذني عبر الطريق القديم المـار بكـل

النواحي والقصبات، ديوانية - حلة – بغداد، نفس الطريق الذي نسلكه في ذهابنا وإيابنا أيام دراستنا الجامعية إذ كان الطريق الوحيد، طريق أليف يصافح المدن والوجوه.

دون مقدمات سألته:

- مازن قل لي متى تحولت ولماذا؟

- أسمع سلومي صار التحول في لحظة، ما أگدر أشرحها لأحد لا لصديقنا اللي سهرنا عنده ولا لأخوتي الشيوعيين أصدقائك، فهم سيضحكون عليّ، سأحكي لكَ، كنت سائق دبابة في جبهة الحرب مع إيران، وكان بوحدتنا شاب جميل يخبل ولا النبي يوسف الموصوف بالقرآن، كان مؤدبًا وموزونًا بطريقة عجيبة، عبالك ما تربى بالمجتمع العراقي الغاط بالرذيلة والفسق،وكان الجميع يتآمر عليه، الضباط يريدونه مراسلًا، وتعرف المراسل يصير عبد وفرخ للضابط، رفض بشدة وشجعناه، كان حضوره خفيفاً يبهج القلب وسط رعب الجبهة والموت المحيط بنا كل لحظة، يعني صار شمعة وقبلة من نور وسط ظلمة الحرب.

كان يقود السيارة بمهارة ويرمقني أثناء حديثه بين الحين والحين، خلفه غابات النخيل الراكضة تضفي على حكايته غلالة تشبه الحلم،تخيلت مكان الجبهة فقد كنت فيها، الجنود بملابسهم الحالكة، ووجوههم المتربة اليابسة وقت اشتداد المعارك وهدوء الجبهات، كان يحكي عن معركة "الفاو" 1986 التي أحتلها الجيش الإيراني واستعادها الجيش العراقي بعد معارك طاحنة، وقتها كنتُ بين الثوار في الجبل، عَاودتُ الإنصات مأخوذاً

بالسلام العميق في قسماته المسترخية والمندمجة ببهجة بلحظتها:

- سلام رجعت من إجازة، وجدت الجميع في وجوم وحزن كأن مصيبة وقعت بغيابي، لزمني قلبي نزعت الحقيبة من كتفي وسألت عن "يوسف"،الكل سكتْ ألححت فقال جندي في حضيرتي: الله يرحمه البقاء في حياتك، جمدتُ صرت حجراً، غير معقولا لجبهة هادئة بعد أن استعادة الفاو، أخبروني أن قذيفة واحدة فقط سقطت على جسده كأنها مقدرة له:

- لم نعثر على شيء،تفتت وانتثر بالتراب!

عندها قلت مع نفسي:

- الله يحب الجمال وأنتقى هذا النقاء ليخلصه من عذاب العيش بهذي الدنيا القذرة، فكرتُ بذنوبي وَتِبتْ لربي، وبدأت أصلي منذ ذلك المساء.

12-8-2009

منشورات «دار الوفاء»

2. ذاكر أحباب

كل غروب يمضه الشوق فيصرخ:

- أاااأأأأأأأأأأأأأخ اليوم ذاكر أحباب گلبي

فيثير شجن الجنود، وحدي كنتُ أعرف قصته فهو ليس أبن مدينتي فحسب بل من محلتي، يكبرني بحفنة سنين، متزوج يصور بسردٍ مفصلٍ كلما عاد من إجازته الشهرية،ما يحدث مع زوجته في الفراش، الجلوس على كرسي بدشداشةٍ بيضاء شفافة

دون لباس داخلي جملة حفظها زملاء الحضيرة المتحلقين حوله،كان يروي لجنود شباب محرومين، فتلمع عيونهم وتحتدم شهوتهم و"حسين قامة" يفصّل العملية الجنسية، ملمس الفخذين، وطراوة النهدين الكبيرين، ولحم البطن البارزة قليلا إذ كان يصفها مطولاً ويصف تدلهه بها،أما ما بين الفخذين فيحجم عن وصفه ليتحول الكلام إلى حركات وآهات وأصوات تجعل الجنود الملتفين حوله يضجون بالضحك والنشوة بعيونٍ تقدح بالهياج في ليل الجبهة والقصف المتبادل طوال النهار. يشنف كل مساء ومع غروب الشمس ويصرخ:

- اليوم ذاكر أحباب گلبي.. ذاكر أحباب.. ذاكر.. ذاكر.. أويلي.. أويلي يمه أويلي..

يصيح بشجن مثل مذبوحٍ يشرف على لفظ أنفاسه الأخيرة وكان ذلك يبعث الضحك المصحوب بالألم لقلوبنا وأجسادنا الملقاة في قفر شرق البصرة التي نقضي يومنا فيها بين الخنادق والمدافع وقت القصف المتبادل، وبين العمل ورواية الذكريات والقصص وقت الهدوء. كنتُ بدوري أصدق كل ما يرويه وأتأمل قسماته في خضم السرد التي تتصاعد في ذروة المشهد محتقنه بالدماء، وتخفت هابطة في وصف موقف فيه ترقب وخوف. كنت ألبث طوال الليل في الفراش وفي نوبات الحراسة أرى المشاهد التي رسمها وجعلنا نراها مدهوشاً من قدرته على التصوير بذلك الأسلوب المحبب الناعم اللذيذ.

كنت أتحاشاه قبل الحرب في المدينة، كان مظهره مخيفاً بثوبه الملطخ بالدم وسكينته اللاهثة المحصورة إلى خصره بحزام

أسود، ومشيته مباعداً ذراعيه كشقيٍ من الأشقياءِ في طريقهِ إلى المسلخ أو دكانه وسط سوق القصابين، وملامحه القوية الصلبة كالحجر ونظراته الحادة الثاقبة وما يُشَاع عن شراسته وجرأته وقوته.

وبعد حفنة سنين وجدتني معه في الوحدة العسكرية نفسها بالجبهة،سنتقارب جداً ونصبح أصدقاء إذ وجدته طيبَ القلب شهماً شجاعاً، حتى إنه ركض معي في ظهيرة حارة إلى وسط البطرية بالرغم من القصف المكثف والقذائف المتساقطة وحمل معي جنديين أصيبا إلى سيارة الوحدة وقصدنا وحدة الكتيبة الطبية فَسَبحنا بدمهما وبكينا لحظة لفظهما أنفاسهما الأخيرة، وعدنا ناقعين بالدم حزينين لم نتمكن من الأكل ليومين متتالين،سألته يوماً:

- ليش أسموك "حسين قامه"؟

انفجر بضحكةٍ عاصفةٍ حتى وقع على التراب جوار الملجأ، جرفني ضحكه ككل مرة ولما تمالكت نفسي منتظراً:

- سلومي أنت ما شايفني يوم عشرة عاشور!

لم يكلف نفسه بالشرح كعادة الشخصيات الشعبية التي تكتفي بالإشارة مستهينة بجهلِ السائل، لم أتوان في الإجازة التالية كرست أياما لمعرفته، فعرفت أنه يُطّبر في العاشر من عاشوراء بسيفٍ قصير حاد إلى أن يغمى عليه فصار رمزاً لشدة حبه للحسين،حدثتُ "محمد" أخ زوجتي القصاب أيضاً عن قصصه المسلية في ليل الجبهة، فلاحظتُ على ملامحه الفتية ظلال سخريةٍ لينفجر حال صمتي ضاحكاً ويقول:

- سلام هذا يألف عليكم، حسين "قامه" ماله شغله بالنسوان عنده حبيب حلو، صحيح عنده أولاد و "أم علي" بس ماله شغله بها! اليوم لمن ينزل الظلام راح أَشْوفَكْ!

في المساء قادني إلى شارع المواكب وسط المدينة، وأشار نحو سيارة أجرة واقفة بمحاذاة الرصيف مطفأة الأضواء وهمس لي:

- أنتظر وركزْ!

جوار جدار معمل ثلج وقفنا ننتظر إلى أن أشتعل ضوء قداحة، فرأيت وجه "حسين" منتشيا وجواره شَعْتْ قسمات صبي جميل يصغره كثيراً، لكزني "محمد" هامساً:

- شفت؟

- نعم!

فأردف:

- لا تسولف أنتم المثقفين كل شيء ما تعرفون!

فَرَبَتُ على ظهرهِ وكدت أختنق من الضحكِ وسذاجتي مردداً:

- والله صحيح ما نعرف شيء!

أدركت سعة مخيلته وهو يروي قصصه للجنود، كانَ يغلف شوقه لمعشوقه الصغير بهذه القصص، وكان يصرخ كل غروب لاهجاً بذكر الحبيب البعيد في "الديوانية" الذي يَشْعِل القلب في غروب الجبهة الموحش، يمضّهُ الشوقُ ويُضّيق خناقه فيصرخ:

- أأأأأأأأأأأأأأأاخ ذاكر أحباب گلبي!

توطدت علاقتنا جداً ووثقتُ به، في ذروة معارك مجنون الطاحنة قامت القيامة، جاء إليَّ تحت القصف الشديد راكضاً وقال بصوت عالٍ:

- يردونْ أثنينْ يعبئون الشاحنات قذائفْ بالخلفي!

- وشو علاقتنا!

- سلوم تعال ماكو واحد يريد يروح، يله تعال نموتُ من التعب ولا نموت بحرب "ابن صبحه"

وجدت الفكرة معقولة، حملتنا عربة عسكرية إلى مخازن خلف الجبهات، ليلتها لعنتهُ ولعنتُ الحياةَ فقد أوشكتُ أن أموت من التعب، تحميل دون استراحة من أكداسٍ عتاد هائلة العدد ووضعها بحوض عربات نقلٍ مصطفة بطابور لا نرى نهايتهِ، وكان صبرهُ يخفف عني وطأة التعب ويجعلني أستمر، كان يقول كلما لاحظ وَهن قواي:

- سلومي تحمّل.. حرامات نموت بهذي الحرب الجايفة!. تحمل.. تحمل!

لم أصمد رجعت إلى مدفعي حال بزوغ الفجر بينما واصل حتى توقف الهجوم، أحببتهُ ووثقتُ به،أبعث معه كلما نزل في إجازةٍ رسائل إلى زوجتي تتعلق بالأوضاع والتنظيم الذي كنا نعمل فيه،كان ينقلها ويأتيني بالأجوبة، التحقت بالثوار بعد أشهر لتغيبني الحوادث والأمكنة أكثر عشرين عاماً حتى الاحتلال الأمريكي فعدتُ في زيارةٍ لأجدهُ حياً، حدثني عن نجاته العجيبة من ميتات عديدة، وعما فعلته الاستخبارات العسكرية حال

هروبي، إذ حققوا معه ومع جنود مدينتي في الوحدة، لم يكف عن عناقي بين قصة وأخرى غير مصدقٍ، كانَ قد كَبَرَ وهدّتهُ الحياة، يقفُ في محل تصليح مبردات محاطاً بأولاده، ويكرر بعد كل عناق:

- والله كنت أحس بأنك تخفي شيئا أعظم منا!

أسهرُ هذه الليلة محتفياً بـ "حسين عطشه" الذي خبّروني أنه مات بهدوءٍ كملاك،لّف رأسه ونام في المساء ولم يستيقظ، حالي في المنفى كحاله في الجبهة يعصف بي شوقٌ مستحيلٌ لتراب الديوانية وبشرها، لمن غادرني من الأصدقاء إلى الأبدية وتركني تائها في هذه الدنيا السافلة، أردد كلما اقتربتُ من حافةِ الحياة:

- ذاكر أحباب.. ذاكر أحباب!

28-3-2013

3. حمود الخياط

بتُ أعتقد أن أمي ألقت بسرتي في سوق التجار المسقوف بالرغم من قولها أنها رمتها في مدرسة، ظلت تكلم نفسها وتسمعني أسفها وهي تراني لا أحضر دروسي، أتغيب عن المدرسة، وأقضي نصف وقتي بلعب كرة القدم والنصف الآخر بملاحقة البنات الجميلات:

- تمنيتْ تطْلعْ تحبْ الكتابْ والمَدرسة!

لكني أشك فأول من أفكر فيه والطائرة تهبط في مطار النجف هو السوق، أما "حمود" الخياط صديقي فهو من قصص شبابي في ذلك السوق حيث ترعرعت فيه وجواره، حكايتي معه تحتاج رواية ففيها الكثير من الأسرار لكن الوقت والعمر ضاقا عليّ ففكرت بقص جوهرها عليكم يا أحبتي باختصار شديد.

لا أحد يستطيع الجواب عن سؤال يكمن في جوابه سرَ المحبة:

- لم تَنْجَذِبْ لشخصٍ معين دون الآخرين ويصبح صديقك تشتاق ويشتاق لك من لحظة التعارف حتى نهاية العمر؟

من يستطيع الإجابة؟ لا أحد، وهذا حالي مع حمود الذي لم يغادر السوق بالرغم من اضطراب العراق وفوضاه ودماره.

العام الماضي انشغلت عنه،فعزمت على رؤيته هذا العام، لم يزل حياً، فخبر الموت عاد أسرع من البرق بفضل الفيسبوك الذي تحول إلى ما يشبه لائحة إعلان موتى، تخيلته يجلس خلف ماكينة الخياطة في دكانٍ صغير بقيصرية تتفرع من السوق يخيّط بالرغم من تجاوزه السادسة والستين،لا أستطيع أبداً تخيله دونها.

حللت بمدينتي، أيامي معدودة فيها والوقتُ ضيق،يقرع دكتور"أحمد نعمة" المختص بأمراض الدماغ باب بيتنا باكراً يحملني معه في سيارته إلى مكان عمله في المستشفى التعليمي،يجري لي فحوصات لم أكن بحاجة إليها لكنه يَصّر عليها قائلا:

- أني أريد أطمئن!

وأعتاد على اصطحابي كل صباح، قلتُ له:

- لازم أشوف حمود الخياط!

سألني:

- منو حمود؟

" د. أحمد" يصغرني كثيراً.

- ستراه!

كنا نسير تحت شمس الظهيرة متوجهين نحو سوق التجار القريب، لم أجب على سؤال أخر عَمن يكون حمود، كررت جوابي:

- اصبر.. ستراه!

وانغمرتُ في قصتنا، كنتُ طالب إعدادية عندما لمعَ أسم "حمود" كأفضل خياط، تقدمي، أريحي، مخلص، يخيط أتقن البنطلونات الحديثة، لكن المشكلة أن قطعة القماش تموت في دكانه سنة أو أكثر حتى يأتي دورها. وقفت وسط ضجيج مكائن الخياطة وصخب زحام السوق حاملا قطعتيّ قماش وقلتً بصوتٍ عالٍ:

- الله يساعدك حمود!

لم نكن قد تعارفنا حتى تلك اللحظة، لكنني عرفتُ الكثير عنه من أحاديث أصدقائي في المقهى،معشره، نكاته، مرحه وطيبته، هو الآخر عرف عني الكثير إذ شّعَ نجمي عقب اعتقالي الأول

مضاف كوني رياضياً ألعب وقتها حامي هدف بنادي المدينة الشهير "الرافدين" واختلاطي بالوسط الأدبي.

- هلو سلومي!

قالها ببسمة عريضة انتشرت حول شفتيه المكتنزتين وتموجت على بشرته ناصعة السمرة لتستقر في عينيه القويتين الودودتين اللتين أحببتهما من أول نظرة كلمعة برق، لم أتمالك نفسي فتبسمت من قلبي.

- هل يشب حريق الحب من ضحكةِ عين يثيرها مرأى عين أخرى يتبعها جذب وتواصل هما مفتاح المحبة؟

- نعم أعتقد بذلك.

سَلمتهُ القماش وقلت:

- چارلس!

كنتُ ابن المودة المتمرد على كل شيء، كان ذلك عام 1971،كيسَّ قطعتيَّ وكتب أسمي على ورقة دسها بين طياتها ورماها على كدسٍ من القطع بزاوية الدكان، اعتذرت من دعوته للجلوس قليلا، كانَ غارقاً بالعملِ، في المقهى وصفتُ لأصدقائي المشهد فضجوا بضحكٍ عاصفٍ وقالوا:

- أنت والسنة زين إذا لحقك الدور!

جمعتُ قصصه ودرستها فتبسمتُ في سري، في ليلةٍ حملتُ قنينة عرق "مسيح" فحمود يبقى ساهراً إلى ساعة متأخرة يعمل للوفاء بمواعيد قطعها للزبائن، كان سوق التجار مظلما عدا دكانه، ظهرت من العتمة ووقفت بصمتٍ أمامه، كان منهمكاً

بإدخال الخيط بثقب الإبرة، انتظرتُ حتى أنتبه ملتفتا نحوي، رفعتُ القنينة عالياً ولوحتُ بها قائلا:

- جاي أسهر وأسكر معك وتخيط بنطلوني!

نهضَ ونزل من دكة محله العالي، عانقني، كان فتياً جميلا دافئ الصدر قلت له مهرجاً:

- حمود أني أخيط بناطيل أثنين كل صيف ألبسهن حتى تشوفني حبيبتي!

انفجر بقهقهةٍ صاخبةٍ ثم علق بسرورً:

- يعني تخيط لخاطرها مو حتى تلبس هههههههههههه!

والواقع كنت أحب بكل صيف وحده شكل!

سهرنا ليلتها وأية ليلة، مرح وضحك متواصل وصراحة وتبادل أسرار، صرنا أصدقاء وأحباب، لكن أتت نهاية سبعينات القرن الماضي عاصفة بأيامها السود، حملة السلطة بدأت واتسعت لتصفية القوى الديمقراطية، ثم تطورت متحولة إلى حملة شاملة لتبعيث المجتمع،خطفوني من نقطة تفتيش فيما كنت ذاهبا لعملي في الشامية، بينما أخذوه من دكانه القريب من دائرة الأمن المجاورة للسوق، فعدنا نشرب وحدنا ليلا في الدكان ونّقلب مصيرنا متوقعين معاودة الاعتقال ومتخيلين رحلة العذاب والجحيم في ظلماتها، نتخلص من رعبنا بعبّ المزيد من الخمرة حتى لا ندري كيف نصل إلى بيوتنا ونتعجب في اليوم التالي ونحن نحاول دون جدوى تذكر الطريق الطويل الذي نقطعه مشيا على الأقدام من الدكان إلي بيتينا، كنتُ متزوجاً لتوي أسكن

بيتاً مستأجراً قريباً من بيته في حي "النهضة" بطرف المدينة الجنوبي، كنا نكرر بأن كلاب السلطة لن تتركنا وشأننا، وسنقتل مثل العديد من أصدقائنا الذين ضاعوا إلى الأبد في أقبيتهم، ولم نكن ندري ما سيصير بنا أو كيف نتصرف، كنا نتزاور ونعتقد بأن لحظة موتنا دانية ولا بد.

هجرنا جلسات الدكان، وتحولنا إلى بيوتنا، فالأمر خطير والحرب مع إيران اشتعلت، فتلخبطت الأمور بشكل درامي متسارع، دعوني لخدمة الاحتياط وساقوني لجبهة الحرب مع إيران كان ذلك آذار عام 1982، فهربت ملتحقا بالثوار مكثتُ بين الثوار أشهراً ستة فمضني الشوق لزوجتي وابني، تسربت متخفياً في المدن والبيوت لكن السُبُل ضاقت بي فعدت إلى وحدتي العسكرية بعفوٍ عام. صرتُ أعيش مثل متخفٍ أكاد لا أخرج إلى شوارع المدينة في إجازتي، وخلال هذا المعترك انقطعنا عن بعضٍ.

في عمق ليلة موحشة من ليالي الحرب، كنتُ في طريقي للالتحاق بوحدتي، أتكور على مقعد خشبي طويل بعربةٍ سيارة عسكرية تحمل الجنود العائدين إلى مختلف الوحدات تنطلق من "الدير"* نحو عمق الجبهة. لفحتني رائحة أليفة فانتبهت بالرغم من الظلام إلى كتلة تجلس جواري، رائحة جعلتني اقتربت منها حتى لاصقتها، كان الفجر على وشك الانبلاج،لبثت مستمتعاً بفيضها الذي غمرني، كان يغطي وجهه بمعطفه العسكري الثقيل غافياً إلى أن انتشرتْ الفضة في السماء، فتحرك وأزاح قبعتها العريضة فإذا بـ "حمود الخياط" لصقي، ضربته بعنفٍ على ظهره صارخاً:

- ولك حمود!

فالتفت نحوي وصرخ :

- سلومي.. سلومي.. سلومي!

لم أتمالك نفسي وهو كذلك فنشجنا قليلا أثناء العناق، كنا في غبش حوض سيارة إيفا عسكرية تنقل الجنود إلى حتفهم نود الذوبان والبقاء مع بعض طويلا، كان وجهه الأسمر قد دَكَنَ فبدا مثل محروقٍ من شدة ظهاري البرية ورعب القصف.

فماذا أحكي لك يا صديقي أحمد.. ماذا؟ وهل يقدر الكلام على الإحاطة بالمشاعر.

أخبرني في حوض العربة المهتزة بأنه في وحدة مشاة على الخطوط الأمامية ووحدتنا المدفعية تسندهم في المعارك،وبالرغم شجن ذاك الغبش وتراجيدية وضعنا البشري هَرّجَ ضاحكاً بصوتهِ الجهوري:

- سلومي مو تقصفنا!

في ليلة حالكة وفيما كنا في الملجأ الجماعي نغرق في النوم، أيقظنا نداء من سماعة متصلة بمركز توجيه المدافع، فهرعت مع زميل يقود معي بالتناوب المدفع وقلت له على عجل لا توقظ الجنود، ركضت نحو المدفع لقمت حجرته بطلقة ووجهت السبطانة صوب الاتجاه المطلوب، لم أبتعد بحبل القدح، كان الطلب مستعجلا، سحبت عتلة الرمي بكفي فأضاء اللهب الظلام، ركض نحوي نائب العريف الذي يكرر أوامر القياسات وهمس برعبٍ:

- وين الطلقة سلام، ضابط الرصد يصرخ وين الطلقة؟

بصمت هرعت حاملا قذيفة جديدة لقمتها بالحجرة، كنت قد نسيت رفع السبطانة للارتفاع المطلوب بالرغم من تنظيم القياسات، وبلمحة بصر سحبت عتلة الرمي. لأرتمي إلى الأرض في الظلام عاباً نفساً عميقاً وزميلي يقترب متسائلا:

- أش صار سلام؟

قلت له:

- أش.. أش ولا كلمة وإلا ننعدم!

فمن المؤكد أن القذيفة الأولى سقطت على قطعاتنا المنتشرة أمامنا، لم نخبر أحداً ولم نكلم حتى أنفسنا، ولم أخبر "حمود" الصاخب وهو يترجى ضاحكاً كي لا أقصفه، ولم أقص ما جرى لأحدٍ إلا الآن لحظة الكتابة، تعانقنا بشدة قبيل نزولي من العربة العسكرية، كان ذلك في خريف 1984، شممنا بعضٍ كنا نعتقد حقا بأن أحدنا لن يرى الآخر أبداً.

مرَّ عام والتحقت بالثوار ثانيةً لأتشرد بعد أن خسرنا حربنا الثورية في بلدان الله وأعود بعد أكثر من عشرين عاما عقب الاحتلال الأمريكي فزارني في بيتي، حضنته واستنشقته، نعم استنشقتهُ، هكذا أحب أحبابي وهم مثلي لكنهم لا يملكون الشجاعة كي يعلنوا عمق مشاعرهم.

فماذا أحكي وكيف أشرح لك يا أحمد علاقتي بحمود كيف؟

دخلنا سوق التجار، تيهت محله الجديد، سألت فدلوني، وجدته خلف ماكنة خياطته، قفز حينما رآني، تعانقنا، شممنا بعضٍ

بأنفاس مسموعة هذه المرة كان يردد بصخب:

- سلومي بعد شبگه وشمه ما أشبع منك ما أشبع!

تواعدنا على جلسةٍ في زيارتي القادمة إذا غَمّضَ عنا عزرائيل.

6-4-2018

منشورات «دار الأمان»

4. مغامرات جندي

كنتُ أنتظرهُ على جمرٍ، فقد أصبحَ "مطر" يخفف كثيراً من ثقلِ يوم الجبهة الطويل والعمل الشاق بسحر قصصه التي يأتي بها من قريتهِ ومغامراته في الأيام السبعة، مدة الإجازة الشهرية، قلتُ أنتظره لأنه كَفَّ عن روايةِ قصصه للجنود الذين يسخرون منه بعد كل قصة وينهالون عليه قذفاً بالأحذية العسكرية الثقيلة وصفعاً على رأسه وقفاه وسط ضجيج ضحكهم الهستيري صارخين:

-گصاص.. گصاص..أكبر گصاص!

عجزتُ عن حمايتهِ بالرغم من الاحترام المفرط الذي يعاملونني به، إذ عدتُ قبل عام من هروبي الطويل وهو فعل عجزوا عنه وكوني خريج جامعة، مُخَمنينَ أن خلف هروبي موقفاً سياسياً وهم محقون بذلك، عدتُ من بين ثوار الجبل وعشتُ متخفياً حتى انسدتْ أمامي السبلُ ولم أجد من يؤويني مما اضطرني للتسلم بعفوٍ عام فأعادوني إلى وحدتي في الجبهة، عجزتُ فأشرت له ألا يروي لهم، كنا قد ابتعدنا وصرنا قريبين من ساتر البطرية الترابي البعيد وخلفنا مدافعها الستة، لزمَ الصمت مطرقاً يحملق بالترابِ مما أتاحَ لي ولأول مرة تأمل قسماته وتفحصها عن قربٍ،وجهٌ ناعمٌ وبشرةٌ لوحتها الشمس، قسمات منحوتة بتلك الأحجام والنسب التي يبدو أن الرب لم يعتنِ بها بل جمعها على عجلٍ فبدتْ غير منسجمةٍ، أشكال ميّزتْ وجوه فلاحي ريف جنوب العراق، مسالمة مطيعة فصاحبي خاض كل معاركِ السنوات الخمس المنصرمة ونَجَّى من ميتاتٍ عديدةٍ، حكى لي العديد منها في جلساتنا التي كثرت في بحر يوم الخنادق الطويل، كان يخفف من هاجس الموت المحيط بنا قائلاً:

- سلومي خويه الأعمار بيد الله.. ها تشوفني "عَدِلْ" خمس سنوات ماكو معركة ما اشتركتْ بيها!

أطالَ التحديق بالترابِ فأطلتُ في تأمله إلى أن رفع رأسه وحدقَ في أفقِ الغروبِ الكابي فارتسمتْ ملامحه جانبياً،عينٌ واسعةٌ ورموشٌ سوداء وحاجبٌ كثٌ وأنفٌ كبيرٌ وفم بشفتين

مشققتين، والقسمات لوحتّها الشمس فبدأ جلدها يتقشر، أبحرَ في الأفقِ الذي توارتْ شمسه تاركةً لطخاتٍ من لونها الدامي في عمقِ السماءِ، ثم التفتَ نحوي فرأيتُ في عينيه الواسعتين فاتحتي الصفرة دفء ومودة طافحة وقال:

- أشْ يخلصْ الوقت إذا واحدْ ما يسولفْ!

- ...

انتظرتُ ليُكْمِل فكرته، فأردفَ بعد فاصلة صمت:

- هذي الناس ما تفتهم!

كان يقصد زملائنا الجنود وردود فعلهم على رواياته،

اقترحتْ عليه:

- "مطر" لمن ترجعْ من الإجازة سولفْ بَسْ إلي.

راقتْ لهُ الفكرة، فأمسينا نختلي بعيداً عن بقية الجنود، نفترشُ الترابَ قربَ الساترِ ليبدأ السرد عن غزواتهُ الجنسية التي تجري أغلبها تحتَ ستار الليلِ أو في عمقِ البساتينِ أوقات الحرِ في الظهائر أو بين سنابل القمحِ في الحقولِ الشاسعةِ، وفيها دوماً هو "الديك" الذي يستطيع أن يمارس الجنس أكثر من عشر مرات في الليلة، يقول ذلك ويستدرك:

- شنو عشرة سلومي، يضيعْ العَدْ لَمْنْ الديكْ يَصيحْ ويْطرْ الفَجِرْ!

كنتُ أحملق بهِ مدهوشاً، وهو ينسج قصصه، فيصور المكانَ بجمادهِ وأصواتهِ قبلَ أن يبدأ بتصوير الحركة، كيف يغادر

فراشه بعد أن يخلد الجميع إلى النومِ باحثاً عن صيدٍ دسمٍ كما يسميه،لم أسخر منهُ أبداً فأنا ككاتب قصة أقدر جهده في بناء حبكتها وإخراجها للسامع مثيرة تقطع الأنفاس، مضاف إلى أنني أعتقد بحدوثها فعالم الليل في مجتمع الكبت يحتمل الفنتازيا والخيال، كل قصة حتى المنسوجة من خيال ممكن وقوعها،وأنا نفسي كنتُ وما زلتُ متلصصاً من الطراز الأول،لم أضبط مرةً، لذا كانت لذتي في السماع مضاعفة، أصغي بذهولٍ ونبرة صوتهِ الخافتةِ المنفعلةِ تصور المشاهد بدقةٍ، ليلٌ ظلامهُ دامسٌ يعتمد المرء فيه على التخمين لا النظر، حركة بطيئةٌ حتى حفيف الخطو يجبُ ألا يصدر عنه أي صوت، كانَ حاذقاً يفيض في الوصفِ والحركةِ ويؤخر الفعل فيطول الترقب وتنكتم أنفاسي بينما "مطر" يلهث وكأنهُ يمارس غزوته الآن،كانَ يُخْفِتْ صوته فأضطرُ إلى تقريب أذني منه بالرغم من عزلتنا، يهمس حينما يصور مواقف خطرة،إحداها وَصَفَ كيف سطا على بيتِ عروسة صغيرة شابه زَوَجُوها بشيخِ القرية يكبرها ثلاثين عاماً، زارتهم مرةً لمعرفتها بأختٍ من أخواتهِ كانتْ معها في مدرسةِ القريةِ،بادلها الحديث وارتاحتْ لـه، أضحكها برواية نوادر مضحكة عن الشيابِ، وَغَمَزَ لها في غفلةٍ من أختهِ، فتضرجَ وجهها وضحكتْ شاردةً بنظرها، لم يهمل الإشارة طويلاً، في الإجازة التاليةِ، قرَّ عزمه على السطو، ولما سألتهُ بكلِ جدٍ:

- "مطر"ليش ما واعدتها بالحقول.. بالبساتين!

- مستحيلْ هي أجتْ حتى تأخذْ قياسات لثوبْ تخّيطه أختي، بعدين الشيوخ يخافون على زوجاتهم لأن ما يشبعوهن إذا به حيل "رأس واحد ويشخر" فتظل تلوب الليل كله مثل سمكة

مسمومة!

عادَ إلى قصتهِ بوجهٍ جدي منفعلٍ، كيفَ عَبَرَ السور وخطا في الظلام نحو غرفتها المتطرفةِ عن غرفِ العائلةِ والزوجةِ الأولى الكبيرة، معتمداً على الذاكرة مقدماً ذراعيه وسائراً ببطءٍ شديدٍ حتى لَامسَ آجر جدارها البارد،وَجَدَ الباب مردوداً، فلبث يتّسمع طويلا قبل أن يدفعها مليماً مليماً حتى انفرجتْ بما يتيح له الولوج، غَمرهُ دفء الغرفة، وَسَكنَ جوار الباب دقائق ينصت إلى شخيرٍ خفيفٍ يصدر من عمقها، قطعَ سرده بجملةٍ عرضيةٍ تزيد من لحمةِ القصة:

- سمعتها تِشْتكي لأختي من شخير زوجها وقلة النوم بالليلْ فكان دليلي لمعرفة موقعها بالظلام!

رجعَ إلى تصوير التفاصيل، كيف دَبَّ مثل دبيب نملة زاحفاً حتى حافة سريرهم، حابساً أنفاسه، كيف أزاحَ عنها الغطاء وحملها، كانتْ صغيرةً خفيفةً، أطبق بكفه على فمها، خاطبني قائلا:

- سلومي ماتتْ أبينْ إيديه!

تخيلتها أخرَسّتْ رعباً فتخشبتْ بين ذراعيه، وخلفَ الغرفةِ تحتَ نافذتها الواطئة همستْ له مرعوبةً:

- هذا أنتَ "مطر" عزَ العزاكْ!

استجابتْ ساعدتني،نزعت سروالها وهمست :

- بسرعة.. بسرعة تره ننقتل!

ووصفَ العملية كأنهُ يرسمها بريشةِ رسامٍ ماهرٍ يُظهرأدقَ

التفاصيل، ثم ختمها:

- أشكُدْ ناعمة وفرجها رطبْ! وَداعتكْ ما طلعته ثلاثة "رؤوس"* وما هدّيتها إلا والفجر طرَّ!

أنتظره على جمرٍ ليرحل بيّ بعيداً عن أجواءِ الجبهة وعملها الشاق، نقلِ العتاد،لقم القنابل والرمي، القصف المتبادل، القذائف المتساقطة التي أصابتْ زملائنا وأخذتهم إلى العالم الآخر، بعيداً عن أخيلة رعبي، من خيال لحظة القبض عليّ حال انكشاف أمر التحاقي بالثوار وعودتي، عن توتر الحاضر، عن اليأس الذي يكاد أن يصيبني بالكآبة، عن.. وعن يدخلني عالم القرى في الليالي " ومطر" يجوب فيها ساطياً على المطلقات وأرامل الحرب المتكاثرات اللواتي حسب قوله ما أن يذهب رعب اللحظة الأولى وَتطمئِنَ حتى تقبلُ بلهفةٍ فتستحيلْ المضاجعة إلى عراكٍ وصراخ مكتومٍ وفحيح، رأيتُ عشرات القرويات العراقيات اللواتي لم أتعّرف عليهن في الواقعِ بالرغم من عملي مشرفاً زراعياً في الريفِ لسنواتٍ، أراهن من بعيد بوجوههنَ الشاحبة الضعيفة وأجسادهنَ الهزيلة، مسكينات واقعات تحتَ قبضةِ القيم والأعراف القاسية والفلاح العراقي الجلف، كنتُ ثورياً طهرانياً يتعاطف من وضعهن الإنساني لكنه يجردهن من الأنوثة والرغبات، "مطر" أخذني إلى عالمهنَ الخبيء الصارخ في الصمتِ والظلامِ بكلِ ما يكتنز في أجسادِهِنَ من شهواتٍ جسّدتها حكاياتهِ الشيقةِ.

عاد"مطر" يوماً من إجازته ليعكف في الملجأ خافياً جسده

* رأس= من كنايات العملية الجنسية في اللهجة لعراقية.

تحتَ البطانيةِ العسكريةِ القديمةِ رافضاً الكلامَ، فأتى الجنود إلى ملجأي ضاحكين طالبين مساعدتهم في معرفة ما جرى لـه، فسألتهم عن الأمر:

- وجهه مشوه وعينه اليمنى وارمة، يعني مبسوط بسطة زينة، ومن أجه قبل ثلاث ساعات ما طَلّعْ رأسه من جوه البطانية!

تخيلتُه متكوراً بزاوية الملجأ متجاهلا توسلاتهم قلتُ:

- أتركوا المسكين بضيمه!

بعد أيام ألفنا ملامحه المشوهة، فعاد يتحرك بعفويته الأولى، اختلينا كالعادة في ركنٍ منعزلٍ، سألتهُ عما أصابه فردَّ بصوتٍ متهدجٍ:

- إلا شويه أُخوكْ أجه يروحْ بيها!

أخذ نفساً عميقاً وكأن ما يريد روايته يخنقه:

- فكرتْ بالسطو على قرية مجاورة فأنكشف أمري وتجمع عليّ شبابها بالظلام، بس أخوك سِلَمْ بجلده بطلعان الروح، وفلتت وما شخصوني وهذا المهم.

ربتُ على ظهرهِ وقلتُ له:

- المهم سلامتك!

أخذته إلى صدري فأنفجر باكياً مثل طفلٍ، كانت المرة الوحيدة التي رأيتهُ فيها يبكي.

بعد أسابيع ستأتيني إشارة من الرفاق كي ألتحق بالثوارِ، وقبلَ

أن أنزل في أخر إجازة قصدتهُ، عانقتهُ بحرارةٍ مودعاً بصمتٍ، واستدرتْ قاصداً سيارة أرزاق الوحدة الذاهبة إلى البصـرةِ، أوقفني ممسكاً بذراعيَّ، التفتُ إليهِ، لم يتكلم لدقائق بل اكتفى بالإبحار في عينيّ مما أربكني قليلا فقلت له:

- أش بيك مطر؟

نطقها:

- سلوم يمكن ما راح ترْجعْ!

- ...!

أفلتُ ذراعيَّ بصمتٍ وهرولتُ نحو "الإيفا" التي شرعتْ بالتحركِ، من عربةِ الناقلةِ الكبيرةِ رأيتهُ يهرول قليلا ثم يتوقفْ ملوحاً بذراعيه كانت هذه أخر صورة له بقت في ذاكرتي، عدتُ عقبَ الاحتلال الأمريكي وبحثتُ عن جنودٍ أحياء من أبنـاء مدينتي كانوا معي في الوحدة نفسها، فعثرتُ على واحدٍ سألتُه عن"مطر"، فأجاب بلا انفعال فقد مرّتْ سنوات طوال:

- قبل شهرين من توقف الحرب أنقتل بكمينٍ للأكراد بالشمال، كان يجلس جنبي بالناقلة، طلقه قناص برأسه. مات بلحظتها المسكينْ!

17-3-2018

5. في هدوء الجبهة

من ناحية "الدير" الواقعة بين البصرة والقرنة كانت الشاحنات العسكرية تحملنا إلى وحداتنا العسكرية المنشرة على طول الجبهة الشاسعة بمواجهة إيران، لتلقينا إلى حافة النار، إلى يسارنا حقول "مجنون النفطية وسط الهور، والعالم المجنون يحيط بنا من كل الجهات، في ظهيرة حارة نادوا بمكبرات الصوت على أمراء المدافع الستة في البطرية للحضور واستلام عدة طبية من المركز الطبي،استلمتُها وفي طريق عودتي إلى

موقع مدفعي وجدت الجندي المعين يقف خلف جهازه خارج غرفة القيادة يشتغل مع ضابط الرصد على توجيه المدافع نحوه أهدافها.

قبل يومين طلبتُ منه أن يعلمني توجيه المدافع لأستفيد من خبرتي عند التحاقي بالثوار،كنتُ أحلم بتغيير العالم بالقوة وقتها، ناداني:

- سلام تعال اشرح لك شلون تنظم المدافع والقياسات.

كان رامي الدوشكا يحفر بكرك ساقية ضيقة ليدفن سلك اتصال موقعه بمركز القيادة، الظهيرةُ حارة حارقة ورغبة جارفة في نوم القيلولة اجتاحتني، شرع بالشرح، كان شابا جميلا من القرنة"

- سلام.. أنظر

وهو يشير إلى المنظار

النعاس أغلق عينيّ فعدت لا أستطيع التركيز.

- لا أدري هل القدر أم غريزة البقاء؟

- هل ثمة ملاك يخفق حولي ويرش على عينيَّ غبار النوم؟

- هل هو الله؟

- لا أدري!

تكثفت الدنيا إلى رغبة مجردة بالنوم فاعتذرتُ:

- تعبان ونعسان!

فرد جملة لا أنساها أبداً:

- بكيفك حبوبي بكيفك، في وقت أخر!

تابعتُ سيري قاطعاً مسافة الثلاثين متراً حتى ملجأ حضيرتي، نزلت درجتين على السلم الضيق، هزتنا قذيفة تصرخ كعياط امرأة ثكلى مرت فوق رؤوسنا لتنفجر وسط البطرية فتدحرجت حتى أخر السلالم الترابية، الانفجار رَجَّ سقف الصفيح ونثر التراب فوقي، كحالي غريزياً أوقات المحن والمواقف الحرجة نهضتُ وتسلقت السلالم وركضت نحو حجرة القيادة غير آبهٍ بقذيفةٍ أخرى سقطت أبعد خلف الساتر،القذيفة الأولى أطاحت بالمعين الذي كنت أقفُ جواره قبل دقيقة، وبـ"عبد فرج" الذي مزقته وأسكنته أبديته على الفور، هرعت إلى المعين كان يرفس بساقيه ماسكاً بطنه النازفة، حملته بين ذراعيّ، حضنته في صدر سيارة جيب أسرعت إلى وحدة الكتيبة الطبية، سبحت بدمه فانتقعتْ بدلتي تماماً في طريقنا إلى وحدة طبية أكبر، كان يهذي على صدري منادياً أباه

- يا بوية لحقتك!

أبوه قُتِلَ في جبهة القرنة قبل شهرين!

كان يتمزق بحضني.

مات في نفس الليلة بالمستشفى التعليمي في البصرة، بكينا جميعا في الوحدة.

كان الفارق دقيقة!

2019

منتديات «رأي» «AlRaay»

6. لَحم حَارْ

أنهكنا المسير طوال الليل في رحلة عودتنا من مواقع الثوار الحدودية إلى عمق أرياف دهوك،بزغ الفجر أثناء انحدارنا نحو قرية صغيرة تناثرت بيوتها أسفل السفح، بلغناها قبل الرفاق بمسافة طويلة، كنا في مقتبل العمر، رياضيين، لعبنا معاً في فرق المدارس التي حللنا بها.

طوال الطريق الطويل كنا نحلم بانتصار الثورة ونتخيل لحظة عودتنا المظفرة بالسيارات إلى مدننا التي ستستقبلنا بالورود كما استقبل كاسترو ورفاقه عند دخولهم "هافانا"، سبقني مسرعاً

نحو سقيفة حجرية،كر من حافتها مهرولاً نحوي ليقول بصوتٍ منخفضٍ:

- تأخر..لا تدخل خلفي!

سألته:

- لماذا وما هذا البناء؟

- نبع ماء تأخر.. أرجوك، سأشرح لك

كان مستعجلاً،أصررت على معرفة الأمر، فأرتبك قائلاً:

- صبية.. صبية وَحَدْها!

.. وجدته في أول يوم وصلتُ فيه القاعدة واقفاً في نهاية الممر الجبلي الصاعد يبتسم، حضنني فشعرتُ بالأمان بعد ليالٍ من المسير الطويل وعبور كمائن ورربايا ومعسكرات الجيش، سألني عن "الديوانية" وما جرى خلفه،كان قد تحول إلى أسطورة إذ هتف في شارع وسط المدينة لحظة القبض عليه بحياة الشعب العراقي منددا بقمع السلطات، واختفى حال إطلاق سراحه تاركاً زوجته وولده الرضيع، هاهو أمامي يحمل سلاحه المتأرجح على كتفه نشيطاً حيوياً، كم كانت سعادتي كبيرة لحظة عناقه كأنني أعانق الثورة متجسدةً فيه، وكم سهرنا نحكي عن المدينة وناسها وأسواقها وأزقتها وصباياها الجميلات.

لم أفهم شيئاً، لعن السماء وركض نحو السقيفة، تمهلتُ بخطوي قليلاً حتى طرف السقيفة،تجسدَ المشهد لعينيَّ، تَجمدتُ كان يتلمس ويفرك بجسد صبية كردية أخرسها الرعب،تحبس صراخاً رسم وجهها وتمسك بإناء معدني جوار حوض الماء، لم

أخرج من ذهولي وهو منهمك في عصر سيقان وصدر وبطن الصبية لاهثاً، في اللحظة التي سحبها إلى صدره، ضـربتُ براحتي المفتوحة أخمص بندقيتي بقوة، تباغت فتركها تفلت من ذراعيه والتفت نحوي، لم تتوانَ هَبتْ راكضةً صوب بيوتِ القريةِ القريبة، عدّلَ ملابسهِ وأقبل نحوي وقال بصوتٍ خافتٍ مكسور:

- وين أنروح رفيق وين؟

- ...!

- متتْ رفيقي والله متتْ.. جست لحم حار!

21-8-2017

منشورات «الألوكة» www.alukah.net

7. تشفي

ليس ثمة مخلوق أَحْقَد من الإنسان، خلصت إلى ذلك من هذه التجربة فأنصتوا، كنتُ أُكَلَف بمهام بريدية إلى قاعدة قريبة، وهناك نسجت علاقات قوية مع بعض الرفاق، أحلّ ضيفاً في غرفة رفيق وزوجته التي التحقتْ من خارج العراق متحملة عناء المسير الطويل المهلك بين جبال وعرة وشوارع عامة مزروعة بكمائن ورايا الجيش التركي والعراقي، نقضي الوقت بالحديث عن الأدب وطرائف الرفاق المضحكة ونتناول وجبة

متأخرة تقوم بأعدادها على مدفأة صفيح منصوبة جنب الباب الواطئ المسدود ببطانية مزدوجة، نسهر حتى ساعة متأخرة، أغادرهم وقت النوم آوياً إلى فراشي في قاعة المنام الجماعية.

في إحدى الزيارات وجدتهما متوترين، قلقين، الرفيقة واجمة، لا تستطيع إتمام جملة واحدة، ولا تصغي إلى حديثي، بينما عينا زوجها الأسمر الوديع تتابعان حركتها وهي تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً معلقةً بكلمةٍ مبهمةٍ تارةً وبجملةٍ مبتورةٍ غامضةٍ تارة أخرى،أستبهم الأمر عليّ فيما كان زوجها يفهم ما ترمي إليه، قدرتُ أن أمراً شخصياً ما حدث بينهما وهما في شاغلٍ عني، فنهضت باغياً المغادرة، هبا نحوي هو من جلسته جواري وهي من خط سيرها وسط الغرفة:

- وين.. وين رايح؟

قلت:

- إلى القاعة!

أمسكا كل بذراعٍ من ذراعيّ وقالا بصوت مرتبك:

- بالعكس نحن بحاجة إليك، أجلس معنا أرجوك!

استغربتُ لغموض الموقف، وضعتُ بندقيتي جوار الحائط وتهالكت جالساً متصوراً أنهما سوف يكشفان سرّ قلقهما، عادت الرفيقة لمشيها المدوخ الرتيب مثل بندول ساعة قرابة ربع ساعة أخرى غير أبهةٍ بأربعة عيون تتابع حركتها بصمتٍ، وقفت أمامي بوجه شاحبٍ، انحنت مقربةً وجهها من وجهي وهمست:

- بعد ساعة سيتبين كل شيء!

لم أفهم أيضاً، لا أدري كيف أنقضت الساعة، ولم أسأل عن الأمر، إذ يبدو أنه سرٌ لا يريدان البوح به، كنا نسمع في السكون القلق صدى إطلاقات وقذائف مدفع بعيد، غرفتهما معزولة عن بنايات القاعدة وقريبة من الطريق الجبلي الضيق الهابط من قمة من قمم "متين"، وبغتةً هبتْ راكضةً، رفعت البطانية وغابت، أعقب ذلك ضجة ولغط أصوات متداخلة اقتربتْ ثم ابتعدتْ،عادت بعد دقائق بوجه شديد الشحوب، قفز زوجها من مكانه واستفهم بعينيه فردتْ بكلمةٍ واحدةٍ:

- أستشهد!

نطقتها ثانية وضربت بباطن كفها المفتوح فخذها ضربةً قويةً، كنتُ مشدود الحواس، نصف قائم في جلستي،متابعاً وجهها لحظة رفعه، نظرتْ بعينيها الصغيرتين نحو زوجها بغيظٍ، ثم نفثتْ جملة مبهمةً لم أفهمها لكن أحسستها تنقط سماً:

- مع الأسف لو الطلقة بذاك!

قالتها بوجهٍ تَصَلّبَ فرأيتها للحظة كصخرةٍ مسنونةٍ متحركةٍ تنضح حقداً، لم يلبث أن تلاشى، فرمت جسدها بين ذراعيّ زوجها المفتوحتين منخرطةً في عويلٍ طويلٍ، كان الرفيق القتيل صديقهما الحميم، قضى في محاولة اقتحام ربايا محيطة بمعسكر "بامرني"، أما الذي تمّنت لو أن الطلقة أصابته فهو رفيق آخر كان مشارك في المعركة نفسها،

- لِمَ وأي أذى لحقها منهُ بحيث تمنت لو أن الطلقة فيه؟

لم أجد تبريراً لذلك الانفعال ولم أفكر فيه، ما شغلتني هو

انفعال اللحظة الخاطفة وجملتها وشكل ووجها الذي رأيت فيه الحقد والأسف مضفورين في صخر الملامح المشوهة التي لم تمحَ بالرغم منمرور أكثر من ثلاثين عاماً، شغلتني كثيراً تلك الأيام وألقتني في بحر من الأسئلة عن معنى الرفقة والنضال والتسامي والتضحية والإيثار، بحرٌ هزَّ الكثير من قناعات آمنت بها منذ صباي فقادتني إلى الثوار مستصحباً زوجتي الشابة الجميلة.

سأجد نفسي بعد سنتين بموقفٍ مماثل، كلفتُ مع أربعة رفاق بالذهاب إلى موقعٍ قُصِفَ بغاز الأعصاب ليل البارحة لمعرفة ما جرى لرفاقٍ ستةً كانوا فيه،جوار النهر وجدنا ثلاثة منهم يترنحون كسكارى ويهذون،في أوج تلك المحنة كنتُ أفكر وتعصف بيّ مشاعر متناقضة عن ورفيق معهم أكن له بغضاً شديداً، فقد حاول الاعتداء على زوجتي حينما ذهبت للعلاج وحاصرها الثلج في قاعدة بعيدة،تطوعتُ للصعود إلى الموقع المضروب للبحث عن ثلاثة بقوا في الموقع هو واحد منهم، بينما أنشغل البقية بمساعدة المصابين بالعبور إلى الضفة الأخرى،بلغت فسحة التل المحاذية لساقية النبع الصغيرة وجوارها كان مستلقياً على ظهره جاحظ العينين وفقاعات زبد تنفجر جنبي شفتيه الوارمتين، كانت السماء صافية الزرقة والعصافير على الأشجار القريبة تزقزق بمرح، تَجَمدتُ محتدماً أحاول التخلص من شعورٍ مبهمٍ لا أعرف كيف أصفهُ، مزيج من التشفي والغبطة، شعور انبثق من أعماقي بغتة حالما وقعت عيناي عليه، إحساس خطف كلمع برق وأورثني شعوراً بالذنب بقيت أعاني منه بقية العمر، توازنت، فحصته لعّلَ به نفساً، كان

قلبه هامداً لكن جسده لم يزل حاراً.

فرغنا من دفن رفاقنا الثلاثة في حفرٍ على عجل وعدنا، طوال الطريق كنتُ أفكر بوقع الخبر عليها، تراءى وجه الرفيقة التي تمنتْ الرصاصة بقلب رفيقٍ تكرهه لا بصديقها، لم أستطع تخمين انفعالها، فالنفس البشرية بعيدة الغور شديدة التعقيد، ما أن أتممنا دفنه حتى شعرتُ بحقارتي وبعار التشفي من رفيقٍ مسجى على ترابِ الله وبابهِ.

وجدتها قلقة تقف في نهاية المسلك الضيق الذي قدمنا منه، أنتحت بيّ جانباً وكان سؤالها عنه:

- دفناه!

تضرجت قسماتها مبتهجةً للحظة خاطفة، ثم استرختْ كمن أزاحت عبئاً ثقيلا كان يجثم على صدرها.

22-3-2018

8. عرس رفيق

لم أستطع النوم، لبثتُ تحت البطانية الرثة منهكاً، على مسافة ثلاثة أمتار جثة رفيقنا "جمال"، قُتِلَ في كمينٍ قبل أربع ساعات أثناء عبورنا الشارع المبلط الرابط بين مصيف"سرسنگ" و "دهوك"، سحبناه بالرغم من الرمي الغزير وقنابل تنوير الربايا المحيطة بالشارع المعتم، تناوبنا على حمله طوال السهل المنبسط، نحضنه ونستلقي حينما تنتشر هالة ضوء التنوير هابطةً من السماء، ونسرع في العتمة كي نصل أقرب قرية

بسفح الجبل، أكثر من ثلاث ساعات بدت كثلاث سنوات حتى بلغناها فهرع سكانها وحملوه على بغلٍ إلى جامع القرية القديم الواسع القاعة بأعمدته الخشبية المنجورة من سيقان أشجار الحُور، بخلاف الأحوال الاعتيادية لم نتوزع على البيوت لنتناول العشاء بل أتوا به والأفرشة إلى باحة الجامع، لم أذق شيئا، فمن أين تأتي الشهية و "جمال" تزوج قبل شهر من رفيقة أحبها وأحبته فعانيا الويل من دسائس رفاقٍ خبثاء نافسوه عليها، لكنها تشبثتْ به فكاد أن يطير من الفرح الذي تضاعف ونحن نقدم له حذاءً جديداً كهدية جمعّنا ثمنه من راتبنا الشهري الشحيح "خمسة دنانير"متحملين خسارة عدة علب سجائر، حملها عاليا ورقص وسطنا قبل أن ينزع حذائه القديم البالي ويقذفه بعيداً نحو سفح الجبل ويعلقً تعليقاً جعل أنفاسنا تتقطع من الضحك:

- شلون دلال رفاق أمرأه بالكاغد وحذاء بالباكيت*.

قالها وتلفت هلعا، كانت بعيدة تعد وجبة العشاء فذاك اليوم خفارتها.

قلنا له بعد أن خف صخب ضحكنا:

- لا تخاف ما سِمْعِتَكْ.

- أشگد جبان بعدك أو لأيام، أنت كل شيء ما شايف!

قال رفيق متزوج كبير السن ترك عائلته ملتحقا بالثوار.

من أين يأتي النوم، وباحة الجامع مكتظة بالمقاتلين من فصائل أخرى عبروا الكمين معنا وساعدونا كثيراً بالتخلص منه

** الكاغد والباكيت تعابير عراقية تعني الجديد

إذ فتحوا نيران قوية من خلفنا على مكامن الجنود، أخفي رأسي تحتَ بطانية كريهة الرائحة فأرى وجه "جمال" المرح بتقاطيعه المنحوتة، جبين واسع، وجه مستدير، حاجبان كثان، وعينان واسعتان ساحرتان بلون العسل لا تغادرهما البسمة،عيناه جعلتها تحبهُ من دوننا، سحرهما ورسمهما أفقدها عقلها فتدلهتْ والعين نافذة الجمال، أما الأنف فمنحوت بحساب متناغم مع استدارة الوجه والفم بشفتيه الممتلئتين المضرجتين كأنه يصبغهما بأحمر شفاه ومهبط الرقبة الطويلة واهتزازها المحبب عند الكلام، ذلك البهاء كله يرقد جواري مغطى ببطانية بيضاء خفيفة ساكناً لا حراك فيه، هامداً في عالم مجهول حيرَّ الإنسان منذ فجر الحضارة،رأيتُ جلجامش يبكي ويصرخ في البرية وينثر ترابها على رأسه جوار جثة خله وصاحبه "أنكيدو".

الرصاصة العمياء الغادرة أصابته بالقلب.

أزيح طرف البطانية عن رأسي وأنقلب على الجنب، أنظر بعينين تَصبّان إلى جثته، يعصرني الألم متخيلاً زوجته تهرع راكضة كما تفعل في كل مرة لعناقه، فتقف مفجوعة وهي لا تراه، أغمد وجهي بالغطاء،أطبق أجفاني بشدة هارباً من المشهد، من أين يأتيني النوم؟، أبعده ثانية وأرفع رأسي شاملا أجساد رفاقي متناثرة حتى المحراب مستغرباً غرقهم بالنوم، عزوت الأمر إلى أنني أول مرة أشهد مقتل رفيق أمامي بينما الرفاق صار لهم سنوات عَدَتْ الخمس بخضم حرب العصابات، رأوا الكثير، مما جعلهم لا يتعبون أنفسهم بتداعيات المأساة واثقين بأنهم سيلقون مصير "جمال"،وهذا فعلا ما حدث لبعضهم!

بين غمد رأسي ودفع الغطاء سهدتُ موجوعاً متألماً في عتمة باحة المسجد المضاءة بفوانيس شاحبة موزعة في أركانه وجوار المحراب، كنا ننتشر في الأطراف كي نتيح للفلاحين أداء صلاة الفجر،تأرجحتُ على حافة النوم فأختلط الواقع بالحلم،فرأيتُ بعينين مضببتين الفلاحين يتقاطرون داخلين من بوابة الجامع الخشبية الكبيرة بسراويلهم العريضة ووجوههم الداكنة بضوء الفوانيس خلف قاماتهم،أطبق أجفاني وأباعدها فرأيتهم يقفون صفوفاً يركعون ويسجدون مرددين آيات كريمة، ثم يتعالى لغطٍ مسكرٍ مدوخٍ:

- الله حي.. الله حي.. الله حي

وانغمرت الأجساد تنود متمايلة يمنةً ويسرة كأنها تتأرجح على حافة النوم،فأخذني الإنشاد في تهويمه نعاس، تقلبتُ متأرجحاً، استرخت أعصابي فوجدتني مهدود القوى تماماً غير قادرٍ على الحراك، ومن باطن النعاس رأيتُ شبحا ينهض في حومة الإنشاد:

- الله حي الله حي لا الله إلا الله الله حي

أفتح عينيَّ.. تنغلقان، أفتح ثانية وثالثة متابعاً قامة الشبح القادم من جانب شَغَلَهُ رفاقٍ من أحزاب أخرى،أقترب من موضعي، أطبقت أجفاني، ظننته أخيلة عقلٍ مجهدٍ من فكرة الفقد والمصير، لكنهُ عبرني بخفةٍ، رأيته في ضباب الضوء والإنشاد يقرفص جوار جثة "جمال" يزيح الغطاء من جهة القدمين، ثم يستعجل العودة و "لا الله إلا الله" تتردد في فضاء الباحة،أسرع قفزاً إلى مضجعه فسقطتُ في غفوةٍ عميقةٍ حتى حينما أيقظوني

صباحاً لم أعرف في أي عالمٍ كنتُ، ومثل حلمٍ مشوش تذكرت نتفاً، فلاحون يؤدون الصلاة وشبح يسطو وضباب.

حملناه بعد الفطور إلى مقبرةِ القريةِ وقبل أنزالهِ في الحفرة كشفتُ عن قدميه فرأيت حذاءً قديماً مشققا محل حذائه الجديد، لم أفلح في معرفةِ شكل المقاتل الذي سلبَ الشهيد الحذاء.

4-4-2018

منشورات «دار الأمان»

9 - رفيق مهضوم

أعطتني زوجتي كيس ملابسي فحملتها قاصدا الحمام المنزوي عن قاعات النوم، هبط المساء على القمم والسفوح، هدأت الأصوات فتعالى هدير النهر في أسفل الوادي، الثوار خلدوا إلى أماكن نومهم عقب عناء النهار، والظلام بدأ يسري فيلقيك إلى وحشةٍ ملساء وغدٍ مجهول، هممتُ برفع بطانية الباب فاستوقفني نحيبٌ متقطعٌ مكتوم يأتي من خلف الحمام المواجه للسفح، التففتُ على أطراف أصابعي مقترباً من حافة الجدار،

رأيته يجلس جوار صخرة ضـاماً ركبتيـه المضـمومتين إلى صـدره وجـواره كيـس ملابسـه المغسـولة وصـورة بالأسـود والأبيض لفتاة شبه عارية يقطعها الثوار عادة من الصفحات الأخيرة للصحف، لم ينتبه،كان ينهنه مثل طفلٍ مكسور الخاطر، ربتُ على ظهره بهدوء

- أش بِكْ رفيق؟

استدار برأسه ونظر نحوي بعينين تصبان صباً وقال:

- رفيق صارْ عُمري أربعينْ وبعدني أضربْ جلقْ*!.

فانفجرتُ بضحكةٍ عاصفةٍ!

* الجلق: العادة السرية

10- حدث في الفجر

- من حوّلَ كومة من الحديد إلى فوهة تطلق الموت للإنسان؟!

بصوتٍ خفيض سأل جندي زميله الواقف جواره:

- ...!

أردف:

- أي ملعون هذا!

ردَ الأخر بخفوتٍ بالكادِ يُسْمَعْ:

- ملعون حقاً!

البندقيةُ قديمةٌ خَشب أخمصها متآكل.

- كم إنسان قتلت هذه الفوهة؟

أجابَ الأخر بعد صمتٍ قصيرٍ:

- يجوزْ!

رد بصوتٍ بغضبٍ:

- يجوزْ.. يجوزْ،أتشك بذلك؟

- ...

أنتظرَ قليلاً، ثم أكملَ جازماً:

- من المؤكد أنها قتلت عشرات.. لا.. لا مئات الأبرياء!

فكرَ زميلهُ الواقف جواره بأخيه الذي أبلغوهم بتصفيته في سجن "أبو غريب" وسرح بعيداً، أخذوهم فجراً من زنازينهم المعتمة الرطبة، مكبلين بالحديدِ إلى فناءٍ واسعٍ، كانوا يهتفونَ بحناجرٍ متوقدةٍ تعانق الأفق البعيد، وأعقاب البنادق تنزل على رؤوسهم بقسوة، صفوهم لصق حائط يتوسط فناء ورجعوا عشر خطوات، ملأت هتافاتهم فضة الفجر فيما استقامت البنادق وأنطلق الرصاص فهوتْ الأجساد الناحلة في الصمت على الإسفلت ساكنةً، في زيارة التعزية قالت أم القتيل:

- كان مضروباً في جبهته!

كانَ يحدق بأخيه الشاخص من صورته المعلقة باسماً غير مكترثٍ بأحزانِ المعزينَ.

أردفَ الجندي بصوتٍ مسموعٍ:

- كَمْ طفل بريء وامرأة كردية، وسجين قتلتها هذه الفوهة!

غادر صمته وترجاه بخفوتٍ:

- أخفض صوتك.. ماذا دهاك؟

أشار إلى بقعة جافة أمام قدميه وقال:

- أنظر.. أنظر.. إلا ترى بركة دم!

كانت كفه تقبض ماسورة البندقية ملتفةً حول فوهتها المعتمة.

- ...

- لنجلب حبلاً!

قال بصوتٍ سمعهُ الجنود، فالتفتوا نحوه يحملقون بدهشةٍ.

- ...

- لنشنق البندقية

- أسكتْ.. أسكتْ ماذا أصابكَ؟

تعالت أصوات الجنود خشيةً من الضابطِ الواقفِ على مقربةٍ.

بصوتٍ أقوى أنتشرَ في الساحة:

- أجلبوا حبلاً سأشنقْ البندقية!

وهبَّ راكضاً خارج الصفِ مكرراً جملته:

- سأشنقها.. سأشنقها.. سأشنقها!

تَسّمَرَ زميلهُ بمكانهِ يتابع بذهول الجندي الراكض صوبَ

قرص الشمس المتلألئ نصفه بين نخيل البستان البعيد. كان يبتعد مردداً بجنون:

- أريدُ حبلاً.. حكمتُ عليها.. أريدُ حبلاً!

وبغتةً هب الجنود وضباط الصف والضباط يركضون خلفه إلى أن رمى أحدهم نفسه وأمسك قدميه، فسقطَ أرضاً،لم يكف عن الصراخِ، بالرغم من غياب كتلته تحت أجساد الجنود الغارقة بفيضِ الدمِ المسكوب من قرص الشمس الدامي المحلق عالياً فوق البساتين، فركَ عينيه وركزَ نظره، رآهم يظهرونَ من الدفق الأحمر حاملينَ زميلهُ موثوق اليدين والرجلين والفم، ويتوجهون به نحو بنايات المعسكر.

17-3-1978
الديوانية – العراق

11- المُربي

رمى جسده الناحل نحوي فأجبرني على العناق، كنتُ أقف على الرصيف المقابل لدكان عمي "خليل" الحلاق الذي تحول إلى مقهى صغير، أقفُ سارحاً في أيام طفولتي التي قضيتها قناً في خدمته، كان مبتهجاً يعيد عبارات الترحيب بعودتي بعد سنوات الغربة، ثم راح يحدثني كأننا عشنا العمر معاً، تفاصيل قديمة عن عائلتي، أبي وأعمامي وأخويّ الصغيرين، أنشغل عني قليلا، فسألتُ الواقف جنبي:

- من يكون؟

- سيد "ك" من مثقفي المدينة الجدد.

كنا ننتظر رسول الخمر الذي سيأتي بكيسه ويدخل زقاق خلفي ضيق بين عمارتين ليضعه في مدخل السلم المظلم المؤدي إلى شقة رثة في الطابق الثاني مكان سهرنا الليلي بعد أن منعت المليشيات الدينية الشرب وأغلقت نواديه، أول جلسة لزمتُ الصمت، فالوجوه لا أعرفها، جديدة عدا واحد أو أثنين، خليطٌ غير متجانس، ضابط شرطة كبير "محقق"، ضابط مرور بملابسه العسكرية، طبيب نسائية، بائع تسجيلات، موظفون، شرطي، مذيع بإذاعة المدينة،شغَّلَ أحدهم قناة إباحية جعلتْ تمطرنا من التلفزيون الصغير الموضوع على رفٍ عالٍ من الخشب يقابلني بالضبط، بالأعضاء التناسلية والآهات والصرخات ووجوه النساء والرجال المتشنجة وهي تمثل طريق الصعود على سلم الذروة لبلوغ ما لا يُبْلَغ؛ الانصهار بالآخر، الجميع يتحدث في السياسة، يسخر من الوضع، ويعلق على القتال المحتدم بين المليشيات والحكومة، وقتها كانت معارك النجف على أوجها، لم أفهم من الجميع موقفاً واضحاً مما يجري. كانوا يروون الأخبار كرواة حياديين، كنتُ أركز على ملامح "ك" المنفعل تحت ضوء مصباح ناري ضعيف يتدلى من سلسلة حديدية مثبتة بالسقف العالي، كان يجلس قبالتي تماماً وفوق رأسه تمتزج أجساد العراة مشتبكة كخلفية تزين كتلته النحيلة، يسحب النفس تلو النفس من سيجارته، ويضرب المنضدة أثناء رده على رأي يناقض رأيه، وفيما كان في ذرة الاحتدام نبَّ المحقق ذو اللغد المتدلي:

- سيد.. سيد من وره.. من وره.. شوفْ!

سقطَ صمتٌ أذهبَ بالسياسةِ والحرب الأهلية المشتعلة لتوها، وشخصت العيون نحو السيد "ك" الذي التفت لاوياً عنقه الطويل، أطلق ضحكة قصيرة مرتبكة، لاحظته يرتجف ويعاود النظر نحو المحيطين، في وجهه نشوة وظلال بسمة تطوف بعينيه، نطق بصوتٍ ضعيف:

- استراحة!

ونهض ليعدل وضع كرسيه بزاوية تجعله يستطيع رؤية بحر اللحم الهادر بالآهات في الشاشة، أمسيتُ أراه بشكلٍ جانبي، والضوء يسقط على صفحة وجهه القريبة، جبهة ضيقة، أنف صغير بدا كمبتورٍ عند نهايته البارزة، عين صغيرة بلا هدبٍ، فم بشفتين خيطيتين، وبشرة محفرة بأثار جدري، تتبعت نشوة قسماته وهو يصرخ لحظة الإيلاج:

- قَبْطه.. قَبْطه يا أمة الإسلام يا بوووووووووووووووية!

كان يستنجد كمن ضُرِبَ على رأسهِ بمطرقةٍ فانطلقت عاصفةٌ من الضحكِ والتعليقات النابية، فاحمرت الوجوه لا من الخجلِ بل من ألق النشوة، ليعود النقاش إلى السياسة والاحتلال، وجيش المهدي، وإيران، والتفجيرات، ومجلس المحافظة، والمستقبل، كنتُ أنصت متعجباً من حماس السيد "ك" وآرائه عن حق الفقراء والشعب في النفط والحكم كأنه سليل اليسار الثوري، ويربط ربطاً عجيباً بين صراع الطبقات وماركس والصدر الأول في خلطة عطار جديدة، وفجأة دخل شاب بهي الطلعة ولعن جيش المهدي واصفاً "الصدر" بالمراهق الذي يصّب على

النار زيتاً، فقفز "ك" من كرسيه، مزق قميصه مثل مَنْ أُصيبَ بنوبةِ صرعٍ وراح يصرخ :

- لا.. لا الصدر مراهق.. مراهق الله أكبر! الله أكبر

وسط ضحك الجميع، حملقتُ بذهولٍ غير قادرٍ على تجميع الأمر، الصدر والفقر ماركس ومن وره، وطريقة تعرفه عليّ،فقلتُ مع نفسي:

- لأرى أي مثقفين جدد ظهروا في غيابي!

في اليوم التالي، نهضت مبكراً كعادتي، أديت طقوس الصباح، خرجت إلى حديقة البيت، استقبلتني فضة شفيفة تقطر من زوايا السماء، لبثتُ غارقاً في الصمت والفجر وزقزقة العصافير على أشجار الحديقة، كنتُ أريد حرز الأوقات كلها، الألوان كلها، الأصوات كلها، أنفاس الشجر والجداران والجيران وسماء شارع طفولتي، فعببتُ أنفاساً عميقة تلو أنفاسٍ حتى انبثاق الضجيج ودبيب حركة مصلحي السيارات الذين احتلوا جزء من الشارع، مع كل ضربة مطرقة أو تشغيل محرك أشعر أن زمني قد أزفَ وصار لمحة في ذاكرتي، توجهت نحو مركز المدينة سالكاً طريقي القديم المار بسوقِ الخضار وسوق السمك القديم، أتريثُ في خطوي مستمتعاً بترابِ المكان وقذارته ووجوه النساء والرجال المتغضنة المتعبة وهي تنادي على بضاعتها الفقيرة، سلة خيار وطماطم، خضروات، سلال تفاح. أستمتع بنغم أصوات الباعة، بالشمس اللاهثة الضوء،بالزحام بأنفاس أبناء جلدتي، وفيما كنت غاطاً في شجني سمعتُ من ينادي باسمي، توقفت وتلتفت، لم ألحظ أحداً، هممتُ بمواصلة طريقي،

لكن النداء تعالى قادماً من تحت رواق الشارع، فرأيته في الظل الكثيف يتحرك بقامته الناحلة وسط دكانٍ ضيقٍ، يملأ أكياس صغيرة بالبهارات لزبائن من النساء والرجال، ويشخص نحوي مبتسماً مشرق القسمات ملوحاً بذراعه، أفرد لي كرسياً جنب وقفته، قال:

- أگعد.. تَفَرّجْ على بشر مدينتك اللي صار لك مفارقهم أكثر من عشرين سنة، نصف ساعة وسأسلم المحل لمساعدي ونتمشى قليلا، ما صدقت أشوفك وأتعرف عليك!

أبحرتُ في الوجوه المتعبة، المشققة، اللاهثة، وجوه نساء بعباءات رثة، وجوه أطفال غضة تلهث تجهد لتبيع أكياس نايلون للمتسوقين المتعبين، وجوه رجال هَرِمَتْ بغتةً وتغضّنتْ قسماتها وهي تُساوم لتحصل على الخضرة بسعرٍ أقل، وجوه لا تعرف بأنها تعيش فوق أرضٍ تدر ذهباً وتعد من أغنى بقاع العالم، شعرت بالعجز التام:

- فماذا أستطيع لهذه الجموع المتعبة المشققة البشرة، السائرة بوهنٍ؟

وماذا أقول فقد ضيعت عمري من أجل فكرة مساواتهم وبناء مجتمع لا فقر فيه؟

شعرت بعجزي وعزلتي وأنا في خريف العمر، هاأنذا أجلسُ وسط السوق والسيد "ك" الذي تعرفت عليه مساء البارحة هاشا باشاً يرمقني وكأنه يعرف دخيلتي وما أفكر به، هل الخيبة رسمت ملامحي؟! لا أدري، أعياني الأمر، التفت إليه فوجدته يرمقني بعينيين فيهما خبث وكأنه يقول:

- ها.. لا تفهم شيئاً.. لقد تغيرت الأحوال!

نفضَّ عن ملابسه غبار البضائع وهو يتكلم مع صبي لا يتجاوز الرابعة عشر حلّ محله، ثم التفت إليّ قائلا:

- هيا بنا!

سألته:

- هل يستطيع هذا الصغير إدارة المحل!

تبسم قائلاً:

- يقدر. يقدر.. هذا الحبيب اللي ربيته من هذي الأيد لهذي من كان عمره ثمن سنين!

قلت مع نفسي:

- هاأنذا أدخل عالماً قديماً يلوح كذكرى مريرة وَمَضَتْ في صباي!

نبَّ الآخر الخبيث الكامن في أعماقي:

- هذا كنز لا تضيعه كنز مغمور وسط الزحام!

تصّنعتُ البلاهة كشأني حينما أود أن يشعر الآخر بأنني ثقيل الذهن أحتاج إلى الشرح ولا أفهم مرامي الكلام وقلت:

- سيد ما فهمت شيء!

- حقك صار لك هواي عايش بالغرب! قلت لك ربيته مثل الزغيرون حسن!

كان يشير إلى الأغنية العراقية الشهيرة " ربيتك أزغيرون

حسن.. ليش أنكرتني" وأضاف:

- بس هو جَلَدْ!

في إشارة لمربي الطيور الواصف طيره الوفي الذي يختلط مع جوقة الطيور الغريبة في السماء لكنه لا ينسى مهبطه القديم.

أمعنتُ في تَصنّع السذاجة فقلت:

- سيد ما أحب الحزورات.. ولا أعرف أحلها، يعني شنو؟

أطلق ضحكة عاصفة وقال:

- يعني إلا أحكي بالقلم العريض.. هو "فرخي" يا فهيم يا أديب!

لم أتضايق من سخرية جملته الثقيلة، فقد أدركت أن مفتاح الكنز صار بيدي وسيطلعني على عالمٍ أحتاج إلى عمرٍ أخر كي أعرفه.

2014

12- الدخول إلى الجحيم

سقطتُ في حفرةٍ عميقة ملساء الجدران، تسمرتُ بمكـاني أتطلع إلى فتحتها العالية وبقعةٍ صغيرةٍ من ماء السماء الداكن الزرقة، أتطلعُ بعيني المكسورتين وأخجـلُ محـاولاً الاختبـاء بجلدي،ويالفداحة هذا! بقينا، بقيتُ أنتظر من يُدلي لي حبـلاً ويسحبني.

عدتُ مذعوراً دوماً، أرتبكُ حينما ألمح شرطياً في الشارع، متحاشياً التقاء نظراتنا قدر مستطاعي.

لقد جففوا أفواه الناس الغاضبة.

أخرج عند السادسة صباحاً في طريقي إلى العمل، ثمة دكان يقع بركن الشارع مظللٌ بأغصانِ شجرةِ سدر وارفة، الشارع خاوٍ إلا من بعض المارة،العصافير تستقبل النهار بزقزقتها، ارتبكت وأنا أقترب منه، كيف لي المرور أمامه؟أبطأتُ خطواتي وأطللتُ على خواء روحي، كدتُ أنهار لاطماً على وجهي، فوجدتها، وجدتُ نفسي أصغر من احتمال أي شيء، إذ تعلمنا الخوف وأجدناه وتفننا بهِ، انتبهت، كنتُ على مبعدة خمسة عشر متراً منه، استدرتُ يميناً وقطعت الشارع عابراً الحديقة الوسطية إلى الرصيف المقابل، وأسرعت بخطوي شاعراً بهشاشتي وبظهري يحترق، كنتُ أنظر أماما متوتر الرقبة كأنني أهرب من نفسي، لكنني شعرتُ أن العينين اللتين تتابعان خطواتي تصيح بجسدي فالتفتُ للحظة وعدت أحدق بامتداد الشارع، ويا لهول ما رأيت!، من بين أغصان شجرة السدر كان يجلس في عتمة الدكان، على رأسه كوفية مرقطة ملفوفة دون عناية يتتبعني بعينيه الحزينتين الشاردتين، ألم الشجر، ألم الماء، وأحزان العراق تركض ورائي قادمةً من عمق عينيه وتصيح بيّ وبالناس بصمت:

- لماذا خذلتم أبني، لماذا، لماذا؟ غادر الدنيا وما فيها لأجلكم، لماذا؟

يومها قبل عشرة شهور قصدنا بيتهم، استقبلنا على العتبة راجفاً باكياً يبحث عن ابنه في وجوهنا، ضمني إلى صدره الناحل وأشبعني قبلاً، لم يزل طعم شفتيه المحبتين طرياً حياً

أرى موضعها كلما تطلعت إلى وجهي في المرآة، قبلات تهزأ بيّ، تلعنني فأهرب من وجهي والمرآة، كان البيت مكتظا بالمعزين وهو يحضن القادمين واحدا بعد الآخر وَيُقَبلّهم بحرارة المنكوب، قلنا له:

- حامد كُتِبَ في التاريخ.

انهمرت عيناه بدمعها وتشبثَ بنا قائلاً بصوتٍ مرتجفٍ:

- ذهب.. قتلوه، ما راح أشوفه بعد، ولا راح يوقف على جنازتي، هو طفل أش وكت كبر أش وكت، بعدني أشوفه يصعد على كتفي ويضحك.. ويضحك.. ويضحك، ليش يقتلون طفل.. ليش؟

وأهتز كسعفةٍ بريحٍ عاتية ونهرٍ مضطربٍ من بكاء وهو يقترب مني، إذ كنت أتردد منذ الطفولة على بيتهم الفسيح لألعب مع حامد، ضمّ رأسه تحت إبطي وراح يشمني كأنه يبحث عن رائحة ولده، لحظتها رأيته تلميذا مشاكساً يجلس جنبي على المقعد نفسه في مدرسة الثقافة الابتدائية، يعاند المعلم ويمازح التلاميذ ولا يهدأ لحظةً، وبحضوره يضج الصف، كان شعلة من الحركة والنشاط واللعب، إذا رغبَ في شيء فلابد أن يحصل عليه، لكنهُ كان غير راغبٍ في الدراسة، فترك المدرسة ليعمل فافترقنا وما عدنا نلتقي إلا صدفة، أو نلتقي في المقهى المقابلة لبيتهم في أماسي الصيف إلى أن سمعتُ باعتقاله أثناء أدائه الخدمة العسكرية الإلزامية، دخلنا غرفة الضيوف فصافحنا "أحمد" أخوه الكبير شاداً على أكفنا بقوة، جلسنا على الفراش الممدود قرب جداران الغرفة الكبيرة العارية صامتين، فرحلتُ

بوجوه المعزين باحثاً عن شيءٍ ما حقيقي،بالنافذة الكبيرة التي يظهر منها مصباح الشارع، تسلقتُ إلى أعلاها فألمتْ بجسدي رجفة خفيفة، كان هناك يطل على جلستنا من خلف زجاج الإطار الذهبي الموشح بشريطٍ أسود، يحملق بنا بعينين باسمتين كما لو كان حياً، أقبل "أحمد" وجلس جواري، كنا معاً في أول اعتقال قبل خمس سنوات، حينما شكلنا تنظيماً جديدا، عُذبنا وقضينا أكثر من شهرين في الزنازين إلى أن أطلقونا قبيل إعلان الجبهة الوطنية 1973، بالرغم من حزنه القاتم كان وجهه يموج بالغضب والكبرياء، كان فخوراً بأخيه الصغير وموقفه، قدم لي سيجارة قائلاً:

- كان بطلا يقابل الجلاد بالشتم والسخرية، فيضربوه إلى أن يغمى عليه.

أنصت متخيلاً جسامة المشهد، وبين جملة وأخرى تسحبني صورة الشهيد المعلقة:

- نقلوهم إلى أبو غريب بعد صدور حكم الإعدام، كنت أزوره بانتظام كل أسبوعين.

قاطعته معتذراً:

- لم يكن بوسعي زيارته يا أحمد!

كنت أخدم العسكرية بدوري.

- اعرف، معذور كان فيها خطراً على حياتك!

وأردف تفاصيل أخرى:

- في المواجهات حدثني عن ليالي وأيام التعذيب، كانوا يلقون

بهم في أقبية تحت الأرض مغمورة بالمياه الآسنة التي تغمرهم حتى الركبتين حيث لا نوم ولا جلوس وبردٍ قارص يجعل الجسد ينتفض، يأتون بعد منتصف الليل سكارى ويطلقون أصواتٍ غريبة ممزوجة بشتائم وفشار بذيء، فينشدون نشيد الأممية ويهتفون بحياة الشعب والطبقة العاملة، فيصاب رجال الأمن بالهستيريا.

صمت وشردت عيناه بعيداً كأنه يرى شيئا لا نراه وأردف:

- كان ذلك يثير عجبي فمن أين جاءته القوة والصلابة، هو إنسان بسيط ترك المدرسة من الصف السادس الابتدائي، قلت له في إحدى الزيارات: خوية ليش ما تتنازل فيطلق سراحك، أنت صغير والحياة أمامك، كان المطلوب منهم فقط توقيع تعهد والانضمام لحزب البعث فيتم العفو عنهم، فرد: لا.. لا.. يا أخي لا أقبل منك أنت بالذات هذا الكلام، أن في إعدامي حياتي، وفي تنازلي موتي، تعلمت منك، من كلامك، من تخفيك عن رجال الأمن، من اعتقالك المتكرر، فأنت من علمني الصمود والتضحية، قلتُ مع نفسي: أَلدّيَّ أخٌ بطلٌ وما أدري؟

ظللتُ ألهث ووجه الأب الشارد الحزين يحجب عني الصباح والمارة، جلست على مقعد سيارة الأجرة في طريقي إلى مكان عملي، من بين أجساد الركاب رميتُ بصري، كان يجلس وسط الدكان ساكناً تحيط به رفوف خشبية قديمة فارغة مغطاة بالغبار، وقليلا.. قليلاً غبتُ عن لغطِ الركاب وضجيج المحرك الرتيب ورأيته يدخل من باب الغرفة المفتوحة على باحة البيت، ينقل قدميه بعناء وبطء نحو كرسي قريب مقابل جلستنا، لم تكف

عيناه الشاردتان المذهولتان عن الإبحار في وجوهنا إلى أن تكور على المقعد الخشبي فصغرت كتلته الذابلة وبقيت عيناه تحملقان بنا برجاء وألم ينبثُ في القلب موجعاً، تشاورت مع صاحبيَّ لمغادرة المكان، إذ عدت لا أحتمل المشهد، نهضنا واقفين فقفز نحونا مردداً بصوتٍ خافت النبرة مكسوراً:

- وين رايحينْ وينْ؟

- راح ابني لكن أحس كلكم أبنائي!

حينما أتذكر ذلك الآن أشعر بطعنةٍ تغور في أحشائي.

اعتذرنا بعيونٍ دامعةٍ وقرب عتبة باب البيت تشبث بنا وطبعّ بشفتيه وجوهنا قبل أن يختم العناق قائلا:

- أريد منكم شيئاً بسيطًا؟

نبّ صاحبي:

- أنتَ تأمر يا عم!

- لا تخونوا عهد ولديّ!

وتداعى باكياً وهو يتشبث بإطار الباب، فأحسست بأحشائي تتمزق.

طوال الطريق لم يغادرني وجهه الحزين فانفصلتُ عن الركاب، أفكر في الأمر، وأحاول إيجاد تبرير للانهيار الجماعي لرفاق "حامد"، وتوقيع أغلبهم تعهدات بعدم العمل السياسي في الحملة الشاملة التي أعقبت إعدامه بعام، ثَقل رأسي، اشتعلت، كدتْ أصرخ وسط السيارة بوجوه الموظفين غير العابئة، بوجوه

بليدة في بلدٍ تحولت فيه القلوب النابضة إلى قلوب من حجر سقيم لا تحس بعذاب البشر.

في اليوم التالي بكّرتُ إلى عملي، وعلى بعد عشرة أمتار عبرت إلى الرصيف المقابل، ومن بين أغصان الشجرة رأيته يجلس بالمكان نفسه وسط عتمة الدكان والرفوف المغبرة بوجنتين بارزتين، وعينين ساهيتين، وبمرور الأيام أيقنتُ أنه أنفصل عن الواقع متنقلاً إلى عالم الخيال والرؤيا، فعاد يرى المارة مثل أخيلة من ضباب أو ظلال بشرٍ، كتلٍ فاقدة المعنى، فينفرد مع "حامد" يحضنه يشمه ينادمه،ما أراه كل صباح زادَ ألمي فظللتُ أتلمس جدار الحفرة الملساء حالما بالفضاء محملقاً بقطعة السماء العالية المطلة من فوهتها البعيدة.

* * *

البارحة استيقظتُ متأخراً، ارتديت ملابسي على عجل، هرعتُ دونَ فطورٍ كي ألحق بالسيارة الوحيدة التي تحمل الموظفين كل صباح إلى ريف البدير البعيد، هرولتُ للوصول في الوقت المناسب، انتبهتُ وإذا بيّ أمام الدكان تماماً، ارتبكت ووجدني أقف مذهولا وأنظر نحوه، كان ساكناً في ألمه يحملق بيّ بذهول، رفعتُ ذراعي بالتحية قائلاً بصوتٍ وجلٍ مرتعش:

- صباح الخير عمي!

اتسعت دهشته وتردد، رفع ذراعه ببطء نصف المسافة وسقطت في حضنه، رفعها ثانية وهو يتفحصني بعينيه المستيقظتين من الشرود، كدت أرتطم بغصنٍ متدلٍ، وودت الهرب، حاولت الابتعاد، سمعتهُ يناديني بصوتٍ خافتٍ لكنه

مسموع وباسمي، فالتفتُ مرة أخرى، رأيته يقف كقطعة ضوء وسط عتمة الدكان ينوء بجسده بالرغم من هزاله، ويؤشر لي كي أقترب منه، أردت أن أجهش باكياً، أضرب رأسي بإسفلت الشارع، أركض هارباً من المكان والعالم، لكن ثقلًا هائلًا حطَّ على قدميّ وقوة مجهولة أدارت جسدي صوبه، اقتربتُ وخواء روحي يصيح بيّ، اقتربتُ كنخلةٍ محروقةٍ، حاولت رسم ابتسامة، لكن هيهات فجلد وجهي تحجر، وقفتُ عارياً بيننا خشب الحاجز، اجتاحني الألم فأطرقتُ رأسي وتمنيت لو تبلعني الأرض، سمعته ينشج مهضوماً، نظرت نحوه، كان ينتفض ألماً ويصّبُ دمعاً مرداداً بصوتٍ ضعيف لكنه واضح:

- ابني في الجنة. الشهداء يدخلون الجنة

انحلت قواي فتداعت إلى الرصيف وهو يردد جملة واحدة:

- أنتم في الجحيم.. أبني في الجنة!

ثم سقطَ على كرسيه مغطياً عينيه براحته، غارقاً بالنحيب، لا أدري كيف وصلت إلى البيت.

ظلَّ يلاحقني بوقفته المنهكة،وجملته عن الجنة والجحيم فعدتُ أراه في الجدران يصيح، في السوق يصيح، في السماء يصيح، في الحلم يصيح، في أشجار الأرض وبشرها يصيح، في الليل والنهار ووجهي:

- ابني في الجنة.. الشهداء يدخلون الجنة!

عندها أدركتُ موتي، وعرفت معنى الجحيم.

8 آذار 1978

الديوانية – العراق

13- نوم

صيف 1984 في سهوب شرق البصرة الحارقة، تشتعل الجبهة بين الحين والحين لأيام طويلة، فلا نجد إلى النوم سبيلاً، يعود أمنية مستحيلة وفرق الإعدام تجوب مواقعنا تراقب هِمَةْ الجنود.

أقود طاقم مدفع 100 ملم مكوناً من ستة جنود طيبين بسطاء سيقوا لخدمة الاحتياط من مختلف مناطق العراق.

أقضي يومي متوتراً كالسائر على الصراط المستقيم، أعد أنفاسي متأهباً، ملقماً بندقيتي طلقة وإبهامي على صمام الأمان في كل الأوقات، ولإخفاء توتري وقلقي أعمد إلى السخرية والنكتة والضحك، وأثناء خلود الجنود إلى النوم في الملجأ المشترك، أقفز من فراشي أحياناً على وقع حركةٍ مباغتةٍ، صوت، أو ما يخيل إليّ وأنا في عز النعاس، كان قراري واضحاً لا رجعه فيه،المقاومة والطلقة الأخيرة في رأسي، فلو اعتقلت سأرى جهنم في أقبيتهم التي وبنهاية المطاف سيقتلونني.

كم من المرات كلتُ اللوم لنفسي التي ورطتها بالتسلل من بين الثوار والعودة إلى الجبهة جنديًّا لأعيش رعب سيناريو إلقاء القبض عليّ الذي أتوقعه كل لحظة، لم أكن خائفاً من الموت بقصفٍ بل من فكرة الانقضاض عليّ التي تخيلتها في مشاهد مختلفة، في الملجأ وأنا نائم، في ساحة البطرية، في طريقي بإجازة، وأنا في التواليت لقضاء حاجة.

أي جحيمٍ داخلي كنت أعيشه وأنا أمزح مع الجنود، آكل، أشرب، أروى وأسمع النكت، لذلك كان الإعياء يبلغ بي حداً تبيد به قواي فأستلقي على فراشي مسبلاً ذراعيّ مطبقاً أجفاني ساكناً دون حراك مثل ميتٍ حتى في ذروة قصفٍ أحياناً.

ثمة جندي قروي يكبرني سناً، طويل القامة، ناحل القسمات، قليل الكلام، بطيء اللفظ، كان يطيل النظر نحويّ ولا يقول شيئًا، فظننت به الظنون وتخيلته ينقض عليّ يوماً معهم في اللحظة المتوقعة.

في ليلة كثيفة القصف كنتُ مسترخياً في مواتي، فسمعته يقول

موجها كلامه إلى الجنود:

- يا جماعة هذا شنو من بشرٍ، شنو من قلب، نايم وما يهمه هذا القصف!

كنت أتجاهل التعليق وأستمر في سكوني إلى أن سألني يوماً عن قدرتي العجيبة وسرها، كيف أشرح له؟ فأجبته ضاحكاً:

- الموتُ موت لكن إذا كنت نائم يكون أخف، الانتقال من نوم مؤقت إلى دائم

وأعقبتها بضحكةٍ عاصفةٍ وسط دهشة الجنود!

30-6-2017

منشورات «دار الأمان»

14- غفه رسمك

لا أدري ما بيّ، استيقظتُ مخنوقاً هذا الصباح.

أفطرنا معا، وللخلاص من ضيق النفس أسرعت بمغادرة البيت قاصدا المسبح، ناهده انشغلت بإعداد الطعام لابننا صلاح وزوجته وحفيدتنا فقد أصيبوا بالكورونا وعزلوا أنفسهم،

تخيلت المشهد وأنا في طريقي إلى المسبح، تقرع الجرس، تضع أواني الطعام، تنتظر نزول احدهم وتلّوح له من بعيد

وتعود.

سبحتُ لساعتين حالماً، وما زلت مخنوقاً، وقليلا قليلا توضحت الصورة، حاصرتني وجوه أحبتي الذين ناداهم الله فلبوا، الشاعر "علي الشباني" و"عزيز السماوي" أخي الشيوعي "كفاح" ورفاقه ولديّ عمتيَّ "صلاح الصياح" و"علي عبد الباقي" و "عبد الحسين داخل"، وحشد ممن تركوني في الحياة أتأرجح على حافة الهاوية زاخراً بالألم والوحشة.

عدت في المساء. كنا بمزاجٍ رائقٍ، قلت لناهده لنسمع غناء عراقي، شَغلت

"غُفه رَسمكْ بعيني

من الصبا لليومْ

وطُيوفَكْ ضُيوفْي

بصحْوتي وبالنومْ"

عصفتْ بيّ الأشواق، رفعتني حتى أبعد نجمة وهوت بيَّ حتى تيه القاع، ووجوه الأحبة الراحلين صامتة حية تلامس وجهي حارة دانية نائية، أجهشتُ باكيا مثل طفلٍ، فهبت من جلستها عانقتني مرددة:

- ليش حبيبي ليش؟

كنت غارقا في شجني

24-12-2021

شعراء وعشاق

منشورات دار الأليعة

منتديات «ألف ياء» «Alfyaa»

1. ندم

أبكر كل صباح في البردِ والحرِ كي أمر بشارع إعدادية البنات القريبة، أنقل خطوي ببطء شديد، أحرز وجوه التلميذات الجميلات قبل التوجه نحو مدرستي التي أصلها متأخرا، كنتُ طالباً في الثانويةِ.

لم أكن رومانسياً فحسب بل غضاً حالماً جميل الشكل، أتعلق كل فترة بأحلى التلميذات أختارها بدقةٍ وتتجمد العلاقة على رسائلِ غرامٍ في كثير من الأحيان من طرفي،سأفهم لاحقا أن

الحبيبات ليس لديهن القدرة على التعبير بالحروف مثلي.

في غمرة تلك الصباحات الحالمة كنتُ أتأمل رؤية الحبيبة الحلم، انشغال مُطّعم بأول تعمقي في الأدب والروايات والسياسة، ترهف حسي وترفعت عن المحيط ملاحقاً جمال وجوه التلميذات، غير مكترثٍ بصبيةٍ زَمَّ نهداها للتو أجدها تنتظر كل صباح مروري في شارع المدرسة، سأنتبه لاحقاً أنها كانت تختل خلف باب بيتهم الخشبي وتسحب الدرفة وتبتسم لي دون جدوى إلى أن يئست من جلب انتباهي المركز على دفق البنات، ففي صباح بارد ظللت أتذكره كل العمر في لحظاتي الشاردة، فتح باب بيتها الخشبي المخلع بصخب لتنطلق منه صبية مثل شعلة ماسكة طرفي عباءتها السوداء، وعيناها الضاحكتان تلتهمان وجهي، كان حسابها دقيقاً تقاطعتْ معي كأنها ذاهبة في الاتجاه المعاكس لخط سيري، حينما صارت المسافة بيننا مترين حررت طرفي العباءة من أسفل الحنك فظهر النهدان الصغيران اللذان كانا في أول الوثب وهمست بنبرة لا تنسى أبداً:

- صباح الخير!

- صباحً النور!

نطقتُ ببلاهةٍ ونسيت الأمر في الأيام اللاحقة، لكن اللهفة في وجه تلك الصبية المراهقة بقيت تتجلى حيةً في لحظاتٍ أفتقدُ فيها الحنان من أقربِ الأحبابِ، كم ندمتُ على تركها تتضور بنيران مشاعرها المتأججة،كانت شجاعةً مقدامة سحبتني في صباح غائم ممطر إلى دهليز بيتهم المعتم، أمسكتْ بكفيّ

المنتفضتين ووضعتهما على نهديها الصلبين الصغيرين الأسمرين الناعمين.

كنت أرتجف هولاً!

كانتْ متماسكةً قويةً النظرات.

يا إلهي كم كنتُ رعديداً وجباناً في تلك اللحظات.

كم؟!

2016

منتديات «ألف ياء» «Alfyaa»

2- على الرصيف

دهستني سيارة في ظهيرة صيفٍ حارقةٍ، كنتُ أقف على الرصيفِ متكئاً على عربة البائع ومظاهراً تقاطع طرق، أتلذذ ببرودة "الأس كريم" بلساني حينما رأيت الفزع بوجه البائع وطفل أخر يقابلني، فالتفتُ وسط صراخ المارة،فرأيت مقدمة لوري خشبي كبير تسرع نحوي، لحظة خاطفة لم أعد أعرف بعدها ما جرى، ما بقي بذاكرتي تنادي بشر وأصوات متداخلة والجمع يسحبني من تحت العجلة الأمامية التي يبدو أنها داست

على طرف دشداشتي العريضة ولفتني إليها كاتمةً أنفاسي، أتذكر صور متفرقة، سريعة متحركة، سيارة مارة، شاب قوي من أهل الشط يدعى "سلطان" صاحب دكان صغير قريب، وضعني بحضنه في المقاعد الخلفية وصرخ بالسائق:

- أسرعْ !

كان المستشفى الجمهوري القديم قريباً جداً، قرابة 200 متر، لم أغب عن الوعي، كنت أختنق، وأشهق باحثاً عن الهواء، لكن حينما وضعوني على سريرٍ أبيض، ووضعوا كمامة الأوكسجين، غبتُ عن الوعي تماماً، لأستيقظ على صوت أمي المفزوعة وهي تهذي جوار السرير وتتلمس جسدي من قمة رأسي حتى قدمي وهي تردد:

- ابني صاير ها طوله وما ادري! يا الله! ليش يا الله ليش!

قبل أن تبعدها الممرضات، جملتها انحفرت بكياني أسمعها حتى الآن بوضوح بالرغم من عبوري الستين، سأدرك لاحقاً بعد سنوات لِمَ لَمْ تنتبه لطولي؛ كانت مشغولة بأخوتي وأخواتيّ العشرة.

أراني بحضن "سلطان" في سيارة أجرة وروحي تكاد تطفر من فمي، أشهق باحثاً عن الهواء، وأتخيل مشهد تشييعي محمولاً على الأكتاف في تابوت خشبي مغطى بإيزار والمُكَبِر يتقدم حشد أبناء محلتي بالشارع نفسه الذي تقلني فيه السيارة إلى المشفى، مشهد ترسخ من رؤية التوابيت المحمولة إلى جسر العلاوي الخشبي فالصوب الصغير وسيارات النجف حيث المقبرة، تخيلتهم يشدونني إلى سقف سيارة، فرحت أكرر

بصوتٍ متوسل بسلطان

- عمي خاف أموتْ خاف أموتْ!

- لا تخف عمي لا تخف راح نوصل المستشفى!

ويحث السائق على الإسراع، كلماته منحتني أماناً وأملاً كأنها منقذي، من يومها أدركتُ ما للكلمة من قوة وفعلٍ عجيب أوقات المحن والألم،سأرى ذلك في تجارب أشدّ سَأمرُ بها، نجوتُ وبقيتُ حياً لأرى الموت في صور منوعة.

22-9-2016

منشورات «دار الأمان»

3- حسنية

أمسكتْ كفي الناعمة الغضة وسحبتني إلى المدخل المعتم، خلفي دخلتْ "هدية" حاملةً رسائلي الغرامية لجارتي "أمل" الشقراء التي هِمْتُ بها من طرفٍ واحدٍ. كنتُ لتوي بلغت الحلم. كانَ البيتُ فارغاً؛ الباحة المسقوفة والغرفتان الداخليتان، مذهولاً كأنني في حلمٍ وكفي بين أصابعها الحارة وهي تسحبني إلى الغرفةِ المطلةِ على الشارع بشباكها المغلق. ما أتذكره بعد كل تلك السنين أني كنتُ مُقاداً ومحاصراً بين امرأتين تلهثان في

الصمت والسكون الذي عمَّ ما أن أغلقتْ "هدية" باب البيت الخارجي الحديدي، لم أكن خائفاً بل تواقاً لما يأتي فأنا لا أعرف شيئاً سوى أن مرسال حبي البيضاء الجميلة السلسة الطيبة همست لي:

- خالتي عدنه زعلانه تعال.. تريدك تكتبله رسالة لزوجها الجندي بالشمال!

- ...

- أهله معذبيها!

كان المجاز معتماً، والباحة كذلك، لا أدري ولا أتذكر لماذا؟ أجلستني على كرسي رث بينما أشعلتْ "هدية" الفانوس وقربتهُ حتى صار يتأرجح بين وجهينا، كنتُ قد جلبت دفتراً مدرسياً وقلماً جافاً وضعتهُ على فخذي منتظراً رواية قصتها، بدأتْ تروي لي عذاب فراقه وسط أهله الذين يكرهونها،تروي وتقترب مني كلما احتدمتْ قصتها على شفتيها المنتفختين المرتجفتين بكلمات عذابها، روتْ ودموعها تصب عذابات يومها وثقله، حرمانها، شوقها للمس أصابعه وحضنه الدافئ. كانت تملي علي:

- أكتبله خلي يحس بعطش صدري لماي أصابعه.

كانت تلفظ شوقها وتقترب مني لاهثةً حتى رأيت مفرق ثدييها الناصعين المتوثبين الصلبين يكادان يقتحمان وجهي المذهول وأنا أحاول تدوين عذابها، في اللحظة الفادحة تلك توترتُ من عبقِ رائحةِ الثديين والقصة وأشواق كلامها الشديد الوجد

المهيج، صارتْ لصقي في العتمة تماما وقالت:

- أكتبله شلعوا شعري!

وغطّستْ أصابعها في شعرها الطويل المكوم بيننا في حضنها، والتمتْ قبضتها لتقتلع حزمة، ناولتني إياها وقالت:

- ضعها في الرسالة!

أكتب ما تقول بحيادٍ ودهشةٍ مذهولا وهي تكاد تلاصقني في العتمةِ، وحينما ألصقتُ الظرفَ أمستْ شديدة القرب بوجهها الجميل الذي عليه أثار جدري قديم، كانت شاهقةً مثل شجرة، ضَمّتْ وجهي المستسلم إلى صدرها النابض العاري قائلا لهدية:

- أطلعي وسدي البابْ.

10-3-2018

منشورات «دار الأمان»

4- نهر الديوانية

كنتُ مجنونا بنهر الديوانية،دكان عمي "خليل" الحلاق لا يبعد عنه سوى عشرين متراً، تموز جهنم،المجرى يعج بالأطفال العراة، عمي يتركني كل ظهيرةٍ ليعود عصراً، أقاوم، وأقاوم، ثم أتداعى فَأقفل الدكان وأركض إلى الماء مثل طيرٍ عطشان، كنت لا أعرف العوم، أغطس وألعب بالجرف الضحل، أُكتُشِفَ أمري، فشبعت ضرباً من عمي وأبي وكل رجال العائلة، الوحيدة أمي كانت تشرح خطورة الأمر وتنصحني بعد أن تُبَرّد

غضبها بِكَمْ صفعةٍ:

- يمه تريد تسودني وأصير أم غرگان مجنونة تباري الجروف، يمه كل سنة الشط يأخذ ضحية!

وفعلا كان شط الديوانية الصغير يسحب طفلاً إلى قاعه المسحور كل عام، وتكمل:

- أشلون تسبح بالشط وأنت ما تعرف تفوج، يمه الماي ياخذك!

تسكت قليلاً وتشرد متخيلة غرقي وتقول بحرقة وتوسل:

- يمه أش راح يصير بينه؟

وتنظر إلى سماء الدار الشاسعة وتكلمها:

- ربيّ أشلون أفهمه ربي!

لم ينفع معي شيء، لا الضرب ولا الكلام، فباتت العائلة مستنفرة، أراهم وأنا في الماء يقفون على الرصيف، يتصفحون بأعينهم حشود السابحين، لكن هيهات أضيع بين الجموع المتحركة الصارخة العارية المالئة سطح النهر الصغير، لكن في يومٍ ما رأيتُ أبي على دراجتهِ وأمامه يجلس أخي الصغير "كفاح" الملتزم العاقل، أوقفها على حافةِ الرصيفِ وحمل "كفاح"ليقف على سطح السور ويطلّ من فوقه على حشد الأطفال إلى أن وقع بصره عليّ فأشار إلى موقعي. أصابني الهلع، فخرجت من الماء،حملت دشداشتي وركضت مع حافة النهر من الجسر الخشبي باتجاه سينما الحمراء، ركضتُ عارياً إلا من لباسٍ داخلي، لم يكن لدينا ألبسة سباحة خاصة، ركضتُ

مفزوعاً لاهثاً، وأبي يدير بقدميه دواسة الدراجة على الجادة المبلطة بموازاتي ويضع "كفاح" المطيع المؤدب أمامه، جاسوسه الصغير سيصبح شيوعياً ويموت تحت التعذيب في ظلمة أقبية الدكتاتور بعمر الثالثة والعشرين دون أن يشي برفاقه، كنتُ أركض لاهثاً محاصراً بين رعبين: مجرى الماء المتدفق إلى يميني وأبي السائر إلى يساري، أجري وأنا أوشك على الانهيار، فهذه أول مرة أُمسك بها متلبساً، فالضرب سابقاً على الظن والتخمين.

ما زلت أتذكر بعد مرور خمسين عاما أشياء صغيرة حرقتْ قلبي، نسخ نكتف أفلام أجمّعها من نفايات السينما القريبة وأعرضها بعارضة يدوية في غرفة الطين المظلمة، كانت تتساقط من دشداشتي أثناء ركضي ولا أستطيع التوقف لجمعها فيتضاعف حزني، ركضت عابراً محكمة الديوانية وسينما الحمراء ومتوسطة الديوانية والشاطئ أقفر فلا أحد يسبح هنا، توقفتُ مقابل مقر مستشفى الفرقة الأولى، الشاطئ ضاق حتى تلاشى فصار ماء النهر يصطدم بسياج النهر، توقفتُ حائراً مثل طيرٍ وقع في شبكةٍ، استسلمتُ بين الماء والسور منتظراً، أمسكني"عبد سوادي"، كانَ مجنوناً من شدةِ حرصه، أجلس "كفاح" على مقعد الدراجة الخلفي ووضعني أمامه عارياً، لم يهدأ غضبه، يصفعني كلما قطع مسافة قصيرة فأشتعل ألماً،ويا لتلك التجربة الفادحة، ضرب ابنٍ عارٍ مستسلمٍ ضربات ولا سعير النار، جعلتني لاحقا أحلف أن لا أرفع يدي على أطفالي أبداً.

هل كففت عن الماء؟

- لا.. لا.. أبداً!

ما أن أبقى وحيداً في الظهيرة، وعلى مسافة عشرين متراً، الأطفال عراة يلقون بأنفسهم من سياج الجسر الخشبي إلى الماء حتى أنسى كل النصائح والضرب والتجارب، فأغلق باب الدكان وأهرع إلى الماء، ألقي دشداشتي على تراب الجرف وأتسلل إلى الماء الضحل شاعراً بلذة فريدة مازالت تنتابني حتى الآن كلما دخلت بحراً أو مسبحاً.

أذاقني النهر رعب العقاب، ولذة الماء، وطعم الموت.

في يوم لاحق تكررتْ التجربة، لمحت أبي يُوقِف دراجته ويركنها إلى حافة الرصيفِ ويستعين بكفاح كي يُشَخّص مكاني، أصابني الهلع وبدلاً من الخروج والتخفي على الشاطئ جعلتُ أنحدر إلى الماءِ العميقِ معتقداً بأن ذلك سيخفيني، دفعتُ طينَ الشاطئ الضحلِ بأطرافِ أصابع قدميَّ، عامتْ ساقيّ في الماء ووجدتني أغطس عميقاً،شعرتُ بالماءِ يتسرب إلى رئتيَّ ثقيلاً، دفعني الموج إلى السطح، فصرخت بأولادٍ كبار كانوا يسبحون قربي:

- عمي..عمي!

جرفني الموج أبعد وسحبني تحته مرة أخرى، تدفق الماء مالئاً فمي وضاع الهواء، رفعني مرة أخرى فظهرتُ وصرختُ من حافة الحياة طالباً النجدة قبل أن أغطس مرة ثالثة حاساً بخدرٍ خفيفٍ، كانَ الماءُ رحيماً رفعني مرةً أخرى فشعرتُ بأحدهم يدفعني نحو الشاطئ الضحلِ الذي لا يبعد سوى أمتار فتنفستُ الحياة، والمنقذ مذهولاً يحملق في وجهي وهو يردد

موجهاً كلامهُ لرفاقه:

- هذا صدگ غرگان!

2017

منشورات «الأيام»

5- الجمال يوجع

إلى روح الشاعر
"عزيز السماوي" 1942-2001

تواعدنا في مقهى "أم كلثوم" الواقعة بطرف شارع الرشيد من جهة الميدان، المكتظة بعشاقها والدخان وصوتها الصادح بحفلاتها المطولة، كنتُ أمرّ من أمامها يومياً في طريقي إلى مكتبات "المتنبي" التي سكنتها بعد أن حَذقتُ طُرُق سرقة الكتب، لكن الازدحام والدخان ووجوه الرواد السكارى طرباً لم يشجعني

على الجلوس فيها.كنتُ محتدماً أول أيامي في الجامعة، فالجبهة بين الشيوعي والبعث لتوها أُعلنتْ، والوقت ضيق بين الدروس وحلقات اتحاد الطلبة العام السرية، والوسط الأدبي اليساري الساحر الذي دخلته بصحبة عزيز، وعلي الشباني،

كالعادة وصلت متأخراً ربع ساعة، وجدتهُ سارحاً يدندن مع "فكروني"، لعزيز صوت فريد يصدح بالغناء في ختام السهرات في البار والشارع. هبّ واقفاً حال رؤيتي بقامته الفارعة المشدودة قائلاً:

- تأخرت؟

عزيز دقيق جدا، مرتب في كل شيء، ملبسه أنيق وكلامه مكثف محسوب،كنت أنصت إلى حواراته وكيف ينطق المفردة ويسبك الجملة ببطء وتركيز وتوكيد، لم يستطرد يوماً، وحينما توطدتْ علاقتنا وتعمقت شكا لي من صديقنا المشترك الشاعر "علي الشباني، الذي يحوّل في سكره الجلسة أحياناً إلى هستيريا من الضحك والتصنيف والمزاح بالأيدي، وضربٍ على المؤخرات وضحك لا ينقطع، الفوضى المبهجة كانت تزعج "عزيز" جداً، ترجاني في أخر مرة قائلاً:

- أكثر من مره حكيت معه ما يفيد، يمردْنّه الجلسة سلام، أنت تلتقي بيه يومية بالديوانية حاكيه يجوز يسمعك!

كان عزيز يسكن "الطوبچي" ببغداد ويعمل مهندس طرق وجسور في وزارة التخطيط، شاعر، منكت، اجتماعي، رب أسرة، من هواياته الغريبة في أوقات الفراغ حل المعادلات الرياضية المعقدة، فكنتُ مع نفسي أتساءل:

- كيف يكون شاعر مثل عزيز منظماً في كل شيء، العائلة، العمل، الوسط الأدبي، العلاقات، يُمَلّح الجلسات بنكاتٍ يبتكرها عميقة الدلالة كأنها محسوبة رياضياً بينما يضج شعره بفوضى الوجود وغربة الروح وجنون الدراويش، بإيقاعات جرس مفرداتها المنتقاة بدقة، حتى طريقة قراءته لقصائده فريدة تخصه ولا مثيل لها.

لم أجد تفسيراً لتركيبته المعقدة العميقة المبهرة حتى لقاء مقهى "أم كلثوم".

خرجنا إلى رصيف شارع الرشيد باتجاه باب الشرقي، انغمرنا في حديث عن الشعرِ وقصيدته الملحمية الأخيرة"أغاني الدرويش" التي يقرأها نهاية كل جلسة واقفاً، يهدر كأنهُ كائن أسطوري ظهر من باطن ملحمة:

(أريدك طيف وإبنومي تفيض دموع

ولو حزني ثجيل وما تبرده دموع

موگلبى عراق التنبض أنهاره حزن وشموع

إو تلمع ع القميص دموع

وأحزن

يضحك الصفاف

ولك حزني ظلام أو لا درب ينشاف

أخاف

أخاف

أخافن حتى من روحي

أنه بلياك)

ينشد لافظاً المفردات لفظاً مشدداً،يكرر المقطع مرات عدة فتتحوّل القراءة إلى طقس من الأصوات والإيقاعات المجسدة، طقس تفردَ بهِ من دون الشعراء. كنتُ أحاول معرفة باعث وظرف ولادة "أغاني الدرويش"، والبحث هذا تمرنتُ عليه من ليالي السهر مع "علي الشباني" الذي روى لي قصة وباعث ومحفز كل بيتٍ من قصيدته الملحمية "خسارة" فأدركتُ أن عُمق البيت الشعري والحسي يأتي من التجربة ودلالتها، وفيما كنا نغور في كهوف الشعر الخفية سحبني من ذراعي قائلاً:

- من هنا

وأشار إلى فرع المتنبي، ثم وضحّ:

- من سوق السراي نعبر إلى شارع النهر!

وعدنا إلى القصيدة والدراويش، فأخبرني أنها تولدت عقب حضوره حفل لدراويش الطريقة القادرية، نسبة إلى الشيخ "عبد القادر الگيلاني" في كركوك، كان موفد لفتح طرق جبلية هناك، وصف أحاسيسه وهو يشاهد الدراويش عراة الصدور يقرطون مصباح الزجاج ويغرزون الحديد المدبب ببطونهم وهم يرقصون في شبه سكرٍ مرددين على قرع الطبول:

- الله حي.. الله حي!

كنا نخرج من زحمة سوق القرطاسية ونعبر باتجاه مدخل شارع النهر، سرحتُ بعيداً منفصلاً عن الزحمة، متخيلاً مشهد

الدراويش الدائرين حول موقد نار يضيء أجسادهم المتمايلة على إيقاع الطبول والله حي وعيني صديقي المذهولتين وهو يلاحق الأجساد الحاضرة والأرواح الغائبة، مرددا مع نفسي مقاطع القصيدة التي يكرر فيها المفردات والإيقاعات بمعانٍ مختلفة، رابطاً بينها والمشهد الذي وصفه بإحساس ودقة وانفعال، فتولدت لدي أفكار عن الرابط الخفي، بغيتُ منه توضيحاً،التفتُ ونظرت إليه، وجدته يحملق بوجوه الصبايا الضاحكات السائرات، بوجوههن المشعة الساحرة ونظراتهن الشبقة التي أوقدها الحرمان والكبت والأسرار، أو هكذا تخيلتهنّ. لم أجده معي، كان يسبح في عالم الوجوه وحدائق الأجساد وألوان الملابس الضيقة،أنا الآخر نسيت القصيدة والحوار ورحت أحملق بعيني الهمجيتين اللتين تتابعان الجميلة المقبلة وتحرز كتلتها من الأمام ولا تكمل متعتي إلا بقياس المؤخرة وانكسار الخصر في عادة مازالت تلازمني بالرغم من عبوري الستين، بينما "عزيز" يتابع الوجوه بعينين متحركتين ورأس ثابت، نسير مثل مخدرين سادرين بالصمت والخيال أتاني صوته:

- عزيز صِيرْ كِلَكْ عيونْ كلك عيون!

يردد مثل درويشٍ حتى نهايةِ الشارعِ،توقفنا قرب جدار بناية قديمة مجاور لبار "شريف حداد"، كان يعبّ نفساً عميقاً كمن ضاقت أنفاسه ونشج بصمتٍ، فارتبكتُ، ربتُ على كتفه الضخمة برفق متسائلاً:

- عزيز.. أش بيك؟

هدأ قليلاً ثم قال بصوتٍ واهنٍ:

- سلام.. الجمال يوجع!

24-4-2020

6- حيطان المحبة

-1-

عَملتُ المستحيل من أجلِ جلب انتباه جارتنا الجديدة "أمل" صاحبة العينين الواسعتين الخضراوين، بنت المعلم الشيوعي الذي لم يبادل جاراً كلمة واحدة في شارعنا العريض المكتظ بالأسر المهاجرة من الأرياف، والمنتقلة من وسط المدينة الضائق بتضخم العوائل.

عملتُ كل ما يخطر ولا يخطر على بال لإثارة اهتمامها فَوُجِهْتُ ليس بالصد إذ كان من أحلامي لكن بإهمالٍ تامٍ، إهمال مجحف لا يتساوى مع اهتمامها الطفيف برفاقي الذين تبادلهم أحياناً التحية، أما معي فلا شيء كأني غير موجود، لا نظرة ولا لفتة، ولا كلمة.

جعلتني أحلمُ بنظرةٍ يتيمةٍ غير مقصودة، فمرة رمتني وسط زحام سوق التجار بنظرة خطفاً،ابتهجت وتوهمتُ أنها شرارة المحبة التي أنتظرها، فهاجت أشواقي المكتومةٍ، وبنيتُ عليها أمالاً لأُحبط في الصبيحةِ التاليةِ حينما تجاهلتْ قامتي المصلوبة فجر كل يوم في طريقِ مدرستها القريبة، ووقع قدميّ المتتبعتين خطوها الواثق غير مكترثة لضجيج أحشائي وأنا أدنو من قامتها الناحلة، فأتوقف وسط الشارع مرتجفاً إلى أن تغيبها بوابة المدرسة.

كنا نتطلع إلى باب بيتها، خطوها، جلستها، ثوبها، ظلها، وكانت شاغلنا الوحيد ومدار حديثنا كل الوقت، وهي مثل ملكة ترتدي قميصاً وسروالاً وتجلس على عتبة دارهم تحيط بها صبايا الشارع القرويات بملابسهن المتحفظة،يجلسنَّ حتى مغيب الشمس، فيما نتحلق في الجهة المقابلة أمام بيت أهلي ننسج قصصاً وكل منا يدعي حيازة قلبها، أحدهم يحكي عن نظرة، الآخر عن كلمة، والثالث عن بسمة، والرابع عن لمسة، والخامس والسادس،فأكاد أُجَن، أدقق بالأسئلة كي أثبت كذبهم، فهي لم تغب عن ناظري عدا وقت مدرستها، أما بقية النهار فهي تحت عيني وقلبي،أعاند وأجادل وأدعي أنها بادلتني أعذب النظرات وأجمل البسمات وأرق الكلمات في قصصٍ من وهم

أمانيّ، أرسم التفاصيل والكلمات من قلبٍ ساكنٍ يعرف أن ما ندعيه مجرد أخيلة من نسج أحلامنا المحتدمة بها.

كان قلبي يرقد مطمئناً متجاهلاً هواجس خفيفة تثيرها خيالات رفاقي، أخلد إلى فراشي ليل الصيف الحار فيحوش بيتنا الواسع وسط أخوتي مطمئن البال لفكرة أن لا أحد نال قلبها حتى الآن،أطبق أجفاني فأراها طيفاً يحوم حولي بجناحين أبيضين مثل ملاك لوحات رسامين عظام سأقف أمامها طويلا في متاحف العالم، أسترخي لأغط في أحلامي العجيبة الغريبة التي حدودها نظرة، ابتسامة، تحية صباح أما لمس الأصابع فذلك لا يأتي لا في الأحلام ولا في أحلام اليقظة، مرة واحدة تمكنت من لمسها في الحلم فاستيقظتُ وكأنني طردت للتو من الجنة.

-2-

لم تدم رخاوة البال، كيف يكون العاشق القلق غير الواثق رخي البال؟، صبي في ربيعه الثاني عشر يعيش أوهام قلبه الفتي المصلوب بقامته التي ضاعت في حقول عينيها الخضراوين الواسعتين، لم يدُم ففي عصر يومٍ مشمسٍ أقبلت مبتسمةً نحوي من جهة بيتهم، قطعتْ الشارع العريض بخطواتها القافزة، توهج دمي،كدتُ أن أطير غير مصدقٍ، اقتربت حاملة بيدها النحيلة كتاباً، وكلما تقدمتْ خطوةً يزداد وجيب قلبي جنوناً، عدتُ لا أرى لا الناس في الشارع ولا الشمس الهابطة في الأفق، أسنانها ناصعة البياض ظهرت بين شفتيها اللتين انفرجتا عن بسمة واسعة جعلتني أغطُّ بنضحي. لم

أستطع التحديق في وجهها المقترب فأطرقتُ ناظراً إلى التراب بين قدميّ، رفعتُ رأسي كانت قد تجاوزتني متجهة نحو جاري "عزيز" الذي أستقبلها بوجهٍ مسرورٍ وتناول منها الكتاب وسلمها كُتباً أخرى هامساً بأذنها كلاماً لم أسمعه جعلها تطلق ضحكة قصيرة وتستدير راجعة دون أن تنظر إلى وقفتي المخذولة، فالقتْ بيَّ في جهنم الغيرة العمياء وهواجسها، ركضت نحو "عزيز" الذي مازال يقف حالماً مخدراً يلاحق قامتها بعينيه الصغيرتين مثل عيني "أبو العرس"،كنت شرساً لا أهاب أحداً، فبالرغم من أنه أطول مني وأكبر مني بعدة سنوات، قفزت نحوه وأمسكت زيق دشداشته وشددتها على رقبته وأنا أزبد وأرعد:

- أش عندك ويه أمل؟

شلته المفاجأة فنحن صديقان وجاران حائطنا مشترك، يرأس فريق شارعنا لكرة القدم، نسهر جوار بابي بيتنا لساعة متأخرة يروي فيها "عزيز" قصصاً مرعبة يحلف بأنها حقيقية حدثت في مكان سكنوه أول هجرتهم من الريف "العذارية" بطرف الديوانية، عن حيات تطير، وذئاب تهاجم الأكواخ، وأشباح تجوب الحقول والأزقة، وشياطين يسكون الخرائب، يجمدنا الرعب من طريقة رويه وخياله الذي يجعلنا نصدقه في ظلام الليل، فتهاجمنا كائناته في نومنا، كان يحاول تخليص رقبته من قبضتيّ القويتين وينظر نحوي بعينين زائغتين وحينما تمكن من أخذ نفساً وأبعاد ذراعي قال وهو يلهث:

- أش بِكْ سلام، أش بِكْ، طلبتْ مني كُتب لأنها نستْ كتبها بالمدرسة وعندها تحضير!

كنا الثلاثة في الصف السادس الابتدائي.

- ...!

وحلف بالأئمة الواحد تلو الآخر لكن كيف أصدقه وأكذب عيني وتلك النظرات المتبادلة والانفعالات في وجهيهما وهو يشاورها كيف أصدق؟

لم أنم طوال الليل، ظللتُ أتقلب تحت الغطاء وسط أخوتي أتابع النجوم الوامضة في عمق السواد العظيم حالما بامتلاكي أجنحة أحملها وأطير بها إلى نجمة بعيدة وهناك سأريها حبي العظيم، ثم اهبط إلى التفاصيل التي أشعلتني فأحاول إيجاد طريقة أو شيء يجعلها تبتعد عن "عزيز" الساحر،صحيح أنه غير جميل لكن لديه قدرات خاصة جعلنا نلتف حوله، قدرات روي القصص والقراءة بسلاسة، تجويد القرآن بصوته الجميل كل فجر حيث يسمعه الشارع كله، وقوته الجسدية في الركض السريع إذ يسبقنا جميعا في كل سباق، الخلاصة كيف أجعل من أخذت عقلي لا تفكر به وتبتعد عنه كيف؟ كيف أخرب هذا الود الناشئ بين محبوبتي ساكنة قلبي وشاغلة لحظتي وعزيز الموهوب كيف؟

هجرني النوم ليلتين وتركني أعّد نجوم السماء وأتخيل أحداثاً وقصصا أرتبها فمرة أضربه بشدة لكنها ستتعاطف معه فهي رقيقة ووالدها معلم مثقف لا يخرج صوته يعاملهم بحنان نفتقده نحن أبناء العمال المتعبين الذين أيديهم والعصا، تمنيت لو يختفي، ينتقلون إلى منطقة بعيدة، أو تنفر منه وتنتبه إلى شكلي الجميل،كنتُ أقضي وقتا أطول أمام مرآة الزينة الصغيرة في

غرفتنا الوحيدة. عشرات القصص أرتبها وتتلاشى في الصباح حيث تلتفت نحوه في طريقها إلى المدرسة عدة مرات مبتسمة ونسمات الفجر تتلاعب بخصلات شعرها الأشقر المتدلي على جبهتها العريضة الناصعة فأكاد أطفر من فراشي وأنا تحت سطوة وجهها المسرور لرؤيته صباحاً، أصرخ وأصرخ حتى يتبدد "عزيز" متحولاً إلى دخانٍ وأخلص منه.

في الليلة الثالثة جافاني النوم أيضا وألقاني في عجزٍ يصيبني عقب رحلات المخيلة العنيفة، أحملق في النجوم المتلألئة والسكون المطبق الذي يقطعه شخير أبي المتقطع، كنتُ مبهوراً بكثافة النجوم وألوانها حينما لمعت الفكرة مثل نيزك هبط بغتة من السماء فجعلتني ألقي الغطاء الخفيف وأقفز مسرعاً نحو غرفة الطين في طرف الحوش التي نستخدمها كمطبخٍ وحمام. تلمست في الظلام خزانة خشبية صغيرة نجرها أبي، سحبت درجها وتحسست أشيائه حتى وقعت أصابعي على محفظة أصابع الطباشير، خبأتها بجيب دشداشتي وتسللت على أطراف أصابعي قاصدا باب البيت، فتحته بهدوء ونفذت إلى الشارع. لبثت للحظات أراقب وأتنصت، كان السكون تاما في ذلك الوقت حيث لا سيارات نجدة ولا دوريات، في كل محلة حارس واحد يجوب ببندقية قديمة شوارعها وقد يجد مكان منزويا ينام فيه. خطوت بخفةِ لصٍ ماهرٍ حتى صرتُ مقابل باب بيتهم، وأسرعتُ بخطِ جملتي بحروفٍ كبيرةٍ جدا ممكن قراءتها من الجهة المقابلة بأصابع الطباشير الملونة، عملت خطين متباعدين للمفردة ثم عبأتها بلونٍ مختلفٍ،أتممتُ الأمر بهمةٍ مسروراً وابتعدت حتى منتصف الشارع فوجدت أن الجملة مقروءة،

كانت جملتي بسيطة جدا:

(أمل صديقة عزيز)

أسكرتني النشوة فعبرتُ إلى الجانبِ الآخر وخططتُ الجملة نفسها على جدار بيتها. كان الليل موشك على الزوال والمؤذن بدأ يعدل السماعة بضربات خفيفة حينما أكملت مهمتي التي سأدمنها بعد سنوات قليلة حينما تدلهت في عشق العدالة والمساواة والدفاع عن الفقراء ضد السلطات الجائرة فكنا نخط الشعارات المحرضة على الثورة في عمق الليالي وكنتُ بارعاً لم أكشف مرة واحدة.

لم أستطع النوم، بقيت ساهراً في فراشي منتظرا قيام الناس، نهضت أبكر من الوقت الذي توقظني فيه أمي كي أجلب الخبز من الفرن في مدخل شارعنا،تسللت إلى المدخل الذي لم يزل معتما وكمنتُ خلف بابنا منتظراً خروجها فهي الأخرى تذهب لجلب الخبز. لبثتُ إلى أن رأيت بابهم الحديدي يُفتَحْ قليلا.. قليلا، ظهرت بقامتها الناحلة، توقفت شاملة الشارع بعينيها، وجمدت في مكانها تحملق للحظة ثم هرعتْ راكضة نحو جهتنا وعادت مهرولة لتغيب خلف بابهم وتخرج حاملة سطل ماء وخرقة قماش لتبدأ بمسح الجملة بعينين تصبان دمعاً، اتجهتُ نحو الفرن دون أن التفت وعدت مع الخبز فرأيتها تمسح إعلاني الأخر على جدار بيتهم وهي تبكي بحرقة، كنتُ مضطرب المشاعر، متعاطف معها وحزين لأجلها ومغتبط للحل الذي وجدته، في الأيام التالية سأخط على جدارٍ مدرستها العبارة ذاتها، لم يعد يهمني رؤية ردود الفعل لكنني سمعت ببكائها

وانهيارها، بلغ الفعل هدفه وماتَ الودُ بينهما بعدما صارَ فضيحةً، لكنها لم تعرني اهتمامها أبداً حتى انتقالهم إلى بغداد.

30-3-2018

7. أرسمْ.. أرسمْ ..

لم أهدأ في طفولتي لحظة واحدة، لم تكن الأرض تسعني، كتلة مشتعلة، متحركة تملأ الصف ضجيجا ما أن يخرج المعلم، وتشعل الساحة وقت الاستراحة بين الدروس باللعب والصراع والمزاح. لا أهتم لعقوبةٍ، ولا أسمع نصحاً، ولا أركن إلى الصمت والتأمل أبداً، لكن معلم الرسم "كريم الصافي" الهادئ الوديع، طويل القامة، قليل الكلام تأمل طويلاً ما أرسمه، وقادني عقب الدرس إلى مشغل المدرسة في قاعة العرض المسرحي،

كان بابها يقابل باب المدرسة الرئيسي، طلب مني الجلوس إلى طاولة الرسم ووضع أمامي ورق أبيض سميك وحزمة ألوان وقال لي:

- سلام أرسم ما يخطر ببالك؟

ومنذ ذلك اليوم شغلتني فكرة الرسم، فرسمتُ عشرات الصور والأفكار وَلوَنّتها إلى أن وجدتني يوما أضجر من فكرة جلوسي الساكن، كانت بي طاقة مشتعلة جعلتني أغادر إلى ساحة المدرسة لألعب مع التلاميذ، أتصارع وأمزح وأضحك.

لا أعرف سبب عداوتي مع تلميذين أخوين هادئين مؤدبين شاطرين، مرتبي الملبس تجلبهم سيارة كل يوم، كان في حقيبتيهما سندويشات ملفوفة بكيس يخرجانها في الاستراحة ما بين الدرس الثالث والرابع ويأكلان في الرواق، كانتْ رائحة اللحم المخلوط بالبهارات والخضر الملفوفة برغيفٍ تشعل جوعي، فأكاد أنقض عليهما وأنهب ما في يديهما، لكنني اكبح نفسي مفكراً في عواقب الأمر. لا أتذكر كيف تجرأت أول مرة، لكنني أحرز رائحة اللحم المشوي الذي ضرب أنفي وأوقدَ شهوة الأكل،كانا يسيران إلى جانبي في الساحة لحظة إخراج الرغيف الملفوف من الكيس، فلم أجد نفسي إلا وقد خطفت رغيفيهما، فحاولا استعادتهما دون جدوى، كنت شرساً، قوياً، جريئاً، صفعتهما بكفي الأخرى فصرخا باكيين وهرولا باتجاه الإدارة، أثناء ذلك كنتُ قد أكلت الرغيفين مثل جائعٍ مجنون وسط ضحك زملاء الصف. في الإدارة عاقبني مدير المدرسة الصارم بأربع ضربات قويات بعصا غليظة على راحتي، وهددني بعقوبة أشدّ

لو كررتها، ظللتُ أغلي مثل فرنٍ وأكبح نفسي مخافة العقوبة، لكنني لم أحتمل، كررتها مع ضربٍ مبرح لهما وتحذير من الذهاب إلى الإدارة، لكنهما كانا مسالمين ولا حول لهما ولا منقذ سوى المدير، فركضا نحو الإدارة باكيين بينما كنتُ ألتهم الرغيفين بلذة متشفٍ هذه المرة كأنني انتصرت على المدير والمدرسة والحياة التي حرمتني من اللحم وطعمه في البيت. تضاعفت العقوبة، ضربني حتى لم أعد بمستطاعي مدّ ذراعيَّ وفتح راحة كفيّ اللتين التهبتا كأنهما حُرِقَتْا بالنارِ، فأمرني بالغروب عن وجهه محذراً بأنهُ سوف يسلخ جلدي لو كررتها.

لم أكف!

بل تَوحشتُ، أضحيت أسلب رغيفيهما وانهال عليهما صفعاً مبرحاً وهما يركضان أمامي في الساحة ولا أقف إلا وهما يدخلان الباب المؤدي إلى غرف المعلمين لأجد نفسي بعد وقت قليل في غرفة الإدارة الساكنة والتي سأتذكرها وأنا في غرفة التعذيب في أول اعتقال بعد خمس سنين من ذلك الوقت حينما بدأتُ أحلم وأعمل لتحقيق حياة أفضل لأبناء جلدتي.

لم تنتهِ هذه الدوامة، صار الأمر يومياً، تجنن المدير، لم أعرف أبداً لحد الآن وأنا في هذا العمر ما القوة الغامضة التي كانت تدفعني إلى الانقضاض على الأخوين المسكينين لأنهب رغيفيهما، وانهال عليهما صفعاً، مع معرفتي بالعقوبة القاسية التي أتجرعها بجلدٍ جعلَ المدير في المرات الأخيرة على وشكِ الانهيارِ حتى أنه عاد يصرخ:

- جننتني.. جننتني ولِكْ.

في أخر مرة، قادني بواب المدرسة "شعلان" طويل القامة من ذراعي إلى المدير مع حزمة كتبي، لم أكن أمتلك حقيبة، أوقفني أمامه وغادر الغرفة، لم يحمل عصاه، تأملني طويلاً،أرهبني الموقف فجعلتُ ارتجف، أمعّنَ في الصمت إلى أن قال بهدوء:

- خذ كتبك وأذهب إلى أبيك ولا تعود إلا معه!

انخسفت بيّ الدنيا، ندمتُ على كل فعلٍ أتيته فماذا سأقول لأبي الرهيب الذي مجرد خاطره يفزعني، هذه مصيبة ما بعدها مصيبة، حملتُ حزمة كتبي، سرتُ أجرجر قدميّ المنهكتين حتى عبرت حديقة المدرسة الأمامية، وما أن جاوزت الباب الخارجي العريض حتى خانتني قواي فتهالكت جوار سياج المدرسة الواطئ مفزوعاً مما ينتظرني من هولٍ في البيت.

تبعثرتْ كتبي جواري على التراب وأنا أسند ظهري إلى آجر السور غارقاً في بكاء من ضاقت الدنيا به، فكيف أذهب إلى أبي وأقول له ما فعلت، كيف يا إلهي سيهري جلدي ما أن يسمع ما قمتُ به،أتخيل ردة فعله فيزداد بؤسي، انقلب العالم في عيني، خفتَ وهجي وذهبت طاقتي حتى لم يعد بمستطاعي لمَّ كتبي المبعثرة، لا أدري كم أمضيت من الوقت لصق الجدار أبكي والأبواب كلها مغلقة في وجهي لا أدري، وفيما كنتُ في القاع المظلم ذاك جالساً أضم رأسي بين ساقي المثنيتين والمضمومتين إلى صدري سمعت صوتاً دافئاً خافتاً حنوناً يقول:

- ها ابني سلام أش بيك تبچى،وليش گاعد هنا؟

رفعتُ رأسي، كفكفت دمعي بطرف قميصي ونظرت إليه

كان أستاذ "كريم الصافي" ينحني عليّ ويدعوني للـمّ كتبي والوقوف وأخباره بالأمر، أشعرني صوته بالأمان، فأخبرته بالقصة كلها وبصدقٍ سوف يُطّبع حياتي لاحقاً ويجلب لي الكثير من المتاعب لكنه سيشعرني براحة داخلية مازالت تلازمني حتى الآن،أخبرته كيف جرى الأمر من أول مرة وحتى طردي، تأملني طويلاً، وكما قلت كان قليل الكلام، سحبني من ذراعي حتى المرسم، وأخرج من درج خزانة خشبية حزمة أوراق وأصباغ مائية وأقلام، طلب مني رسم ما يخطر ببالي قائلا:

- أرسم سلام.. وراح أحل الأمر!

لم أكن مصدقاً، لكن أتاني بعد ربع ساعة ليقول:

- خلص تقضي"الفرصة" بالمرسم!

كأنه أخرجني من بئر ومنحني جناحين.

2015

منشورات «آلاء»

8. سِبْحَة علي بن أبي طالب

وجدتـهُ يصـلي، أخي الـذي يصـغرني خمسـة عشـر عاماً،انزعجتْ فأنا لا أحب التدين الشكلي. و"عادل" هذا اسمه دليلي في كل زيارةٍ إلى مقبرةِ النجفِ الشاسعةِ، يأخذني إلى قبور أحبتي أجدادي، أمي وأبي، أعمامي ومعارفي ومن فقدتهم في غربتي الطويلة،كنتُ أسعد بصحبته الحميمة، ينقلني بسيارتهِ الخاصةِ من الديوانية إلى النجف مدينة الموتى والأمل، عقب فراغنا من زيارة قبور الأحباب من الفجر حتى نزول المساء،

همس لي وفي وجهه ارتباك ووجل فهو يعتقد بأني شيوعي ملحد:

- سلام لازم أزور الإمام!

وهو يقصد ضريح "علي بن أبي طالب" استغربتُ حرجه وقلت له:

- أزور معك فأنا أريد الكلام معه!

سألني:

- مع من؟!

رددت بمرح:

- مع علي بن أبي طالب صديقي الحميم!

قلتها بعفوية وصدق فقد عشتُ مع "علي" وقت حجزنا قبل ثلاثين عاماً في معسكر لجوء بأقصى شمال إيران "أوردكاه خوي زرعان"، عشتُ معه وأنا أطالع بتفحص وأدرس الأجزاء العشرين لمجلد شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد الذي جعلني أهبط عميقاً في معاني الأحداث وأدرك أي مأزق يجد فيه الإنسان المثالي نفسه في واقعٍ لا يفقه معناه ومقاصده.

أين لأخي الصغير فهم جوهر جملتي عن كون عليٌّ صديقي.. أين له؟، وهو أصلاً يعتقد أنني شيوعي ملحد هههههههههههه!

دخلنا الحضرة الجليلة معاً، هو برهبة إيمانٍ قلقٍ وأنا بصلادة معرفتي بالتاريخ والقصة. شخصياً أذهلتني قراءة التفسير لابن أبي حديد التي أبحرت في عالمه عميقاً طوال أشهر في غرفةٍ

واطئةِ السقف ليس فيها إلا فراشنا أنا وزوجتي، فوصلتُ إلى قناعةٍ بأن "علي بن أبي" طالب حبيبي لا يختلف في بؤس قصته عن بؤس قصتي وأنا أفقد المعاني وأعود للعراق وأجد رجال الدين المشعوذين السراق يسيطرون على مناحي الحياة.

لم يكن مهماً الفعل العام فهو قائم بغض النظر عن موقفي، لكن ما كان يهمني هو انحدار أخي في كذبةِ التدينِ العام الذي يتيح للسراق شرعية السطو.

قلتُ له:

- خويَه أزور معك، ليش مستغرب؟

دخلنا من الصحنِ إلى فسحةِ الضريح وقفتُ جانباً وحكيتُ مع شيخي الجليل ما حكيت، رجع أخي بعد أن تمسك بشبابيك الذهب وقرأ الزيارة من كراسٍ موضوعٍ في مكتباتٍ صغيرةٍ موزعة بالممراتِ المحيطةِ بقبة الضريح المذهبة وقال:

- أريد أصلي صلاة الزيارة.

قلت له:

- أنا وياك!

سألني متعجباً:

- أنت تصلي سلام؟

تبسمتُ متأملاً ملامحه المدهوشة وعينيه الصفراويتين الواسعتين وقلت:

- ليش خوي حبيبي تشك بإيماني مو گلتلك الإمام يعرفني

وأعرفه أكثر منك حقاً!

دخلنا المصلى المجاور للضريح كان شاسعاً دافئاً كأي مزار ديني، راقبتهُ وهو يحمل تربة الصلاة كي يسجد ويلصق جبهته عليها، كانت نيته غير صافية، لم يتوحد في صلاته وينفرد بالإمام، كان يراقب ما أفعله بطرف عينيه وهو منغمر في الركوعِ والسجودِ والقيامِ والقعودِ، فقد ألحَّ عليّ:

- خويه إذا أنت ما تصلي ليش تدخل للمصلى!

كنت أرد ضاحكاً:

- أنت أش عليك خوية!

أستغرق بالصلاة، وجواره على بعد خطوات جلست على كرسي مخصص للمعوقين الذين تكاثروا في حروب العراق العبثية، وبدأت أتمتم صلاتي الخاصة كأنني معاقٌ، وعيني تنتقى أحلى سبحة من سبح موضوعة في صندوق مفتوح موضوع على منضدة لصق جلستي، رفعتها بأصابعي، قبّلتها وكومتها بباطن راحتي، وفي لحظة بارقة خاطفة يدركها اللص المحترف فقط أسقطها في جيبي، كنت أحتاج هذه السبحة التي تحمل روح مكان الضريح، فقد كتبتُ قبل ثمانية وعشرين عاماً وأنا محاصر في موسكو بعد سفر زوجتي وابنتي إلى الدنمارك فبقيت ضائعا فيها دون وثائق ولا عانة ولا فلس أسكر من الصباح إلى المساء، كتبتُ رسالةِ عتبٍ أحاور فيها الإمام،لم أراجعها لحد الآن، ولديّ نية بالعودة إليها وأحتاج شيئاً من المكان القدسي أثناء عملي عليها فلم أجد أفضل من "السبحة".

عبرنا عتبه الإمام أصبحنا في الفسحة مقابل سوق النجف المسقوف

سألني أخي:

- سلام قل لي ليش دخلت وياي للمصلى؟!

أخرجتُ له السبحة الصفراء وقلت:

- أنت ما تعرف عدوّلي أني صديق الأمام وعندي حوار معه يعني مشروع رواية مؤجل حتى الآن

وهذي السبحة أحتاجها لمن أشتغل بها

ردد مرعوبا:

- سلام يعني سرقتها؟!

غرقتُ في ضحكةٍ عاصفةٍ وحينما تمالكتُ أنفاسي قلت له:

- أي سرقته.. تعتقد راح يلطشني، أمامك مسكين جاي يصلي بالجامع وقتلوه يعني مثلنا لا حول له ولا قوة!

أخي يحبني بجنون، ظل واقفاً يحملق في وجهي الضاحك، ثم قال:

- خوية سلومي راح تخبلني!

غرقتُ في ضحكةٍ عاصفةٍ جديدة، وأنا أفصص خرزات المسبحة.

2019 – 1 – 25

منتديات «ألف ياء» AlfYaa

9- الجزدان السفلي

كان صديقي الشاعر في سنته الأخيرة، لم يزل بـه قـوة، يستطيع التركيز بالرغم من قسوة الحياة عليه ولفظ عائلته له،

كنا نقف على الرصيف في تقاطع بشارع الثورة نبغي العبور صوب مقهى أعتدنا الجلوس بركنها على كراسٍ ناصية تطل على المارة حينما وقفت امرأة ناضجة بثيابها السوداء وسط الشارع الفرعي العريض وصاحت بصوت قوي واثق:

- سلام.. سلام أنت هنا وما تزورنا!

شخصنا نحوها، باعدت طرفي عباءتها كاشفة صدرها وجسدها الرشيق كررت جملتها وأضافت:

- فوگاها ما عَرَفتْني!

حملقتُ فيها؛ وجه غض لم يقع ناظري عليه لا الآن ولا قبل هروبي وتغربي، لكنها صورة من جارتنا "حمزية" زوجة مصلح الإطارات الأعور، صورة مستنسخة تماماً قلت لها ضاحكاً:

- أنت بنت "حمزية" جارتنا!

كانتْ جريئةً وشجاعةً:

- أني فلانه ما تتذكرني كان عمري عشر سنين لمن شردت، ، سلوم أحنه كلنا نحبك،ونريدك تمر علينا بكل زيارة لأن نحبك.. نحبك، أنت أبو الأصول لازم تقدر جيرانك وأحبابك و تمر!

كانت تتكلم من الرصيف المقابل يسمعها أصحاب الدكاكين والمقاهي والمخبز،

- ننتظرك سلوم مرّ الليلة!

واستدارت مع صاحبتها العجوز متوجهةً نحو جسر المدينة.

التفت نحوي بوجهٍ غادرته الكآبة وقال:

- سلام معقولة ما تزورهم، مو مبينه كلهن يرّدَنَكْ،هذني قحاب، اللي حكت وياك كنا نجيبها في مكتب صديقنا المقاول

وكانت تسكر وترقص وسطنا باللباس، وهسه هي تريدك مو تريد تسترزق تريدك سلوم يعني راح تمتعك حيل!

حرتُ كيف أشرح له بأني بالرغم من جوباني البلدان وغربتي لم أنم مع امرأة غير زوجتي ولا أبغي ذلك!

- ما أريد أزورهم.. أدري همه مقابل بيتنه لكن ما أريد!

نظر نحوي باستنكار:

- يعني حتى تثبت أنك وفيٌّ لزوجتك!

قالها ورمقني بنظرة ساخرة، هزَّ ذراعه مستنكراً وأردف:

- زورهم واستمتع، لو شعارك "الحياة لحظة" بس كلام!

كيف أشرح لصديقٍ تورط بالسياسة وسجن في زهرة شبابه سبع سنوات بسجن الحلة، يعني أنحرم ليس من المرأة فحسب بل من الحياة. قلت له:

- ما راحْ أزورهم!

- وبيتهم مقابل بيتكم!

- ...!

حرنتُ بصمتي فأستطرد بصوتٍ به حرقة:

- وأنت يا هو اللي يشك بيك، المناضل اللي قاوم وتغرب!

وأضاف بلهجة ملتاعة:

- صدق المثل "الله يعطي جوز للي ما عنده سنون"!

أخذتني موجة ضحكٍ صاخبٍ حتى كدت أسقط على

الرصيف،توّقفَ ينظر نحوي بدهشة مستغرباً إلى أن هدأت، فحكى لي عن أختها الكبيرة التي كانت مجنونة جنس، شعلة لم يطفئها إلا نائب ضابط شجاع تجاوز سوء السمعة والقيم ونهمها. عاند المحيط وتزوجها، لم يتح لها فرصة للتنفس كل عام طفل جديد فسطر تسعة أفراد. كان يجلس فخوراً في مقهى المحلة يمسد شاربيه ويفرد حبات مسبحة صفراء طويلة ويصرح:

- خليتها ما تعرف رأسها من رجليها هههههههههه!

استبشر سكان المحلة، وظن الجميع أن نارها بردت، لكن الزوج الطيب أُسِرَ في الحرب مع إيران فعادت إلى تهتكها.

- تعرف سلومي أش لون نِكتْها، قضيت لها شغله بالدائرة. جرتني على صفحة وفتحت الجزدان (محفظة النقود) قلت لها: ما أريد الجزدان الفوگ أريد الجزدان الجوة.

وأشار بأصابعه إلى وسطه، ونظر لي من تحت حاجبيه المتحركين وأكمل:

- قالت بسيطة تعال بكرة الصبح للبيت، وفعلا رحت، دخلتني الغرفة وقفلت الباب، أطفالها يلعبون بالحوش، متحضرة نامت على ظهرها ورفعت ثوبها كانت بلا لباس ضاجعتها، رِدِتْ أثني رفضتْ، وراها كم مرة أصادفها بالسوق أحاول معها أبد لكن ما تقبل. القحبة كانت تضحك وتقول، "أبو حسين حقك وأخذته، ليش أنتَ طماع!"، وتضحك مسرورة.

كان يجلس جواري على دكة المقهى المرتفعة عن الرصيف ويتكلم بحرقة وغضب. ما أن أتم جملته لافظاً بغيظ مفردة

"مسرورة" حتى انتابتني موجة ضحك عاصف لا مصد له، وأنا أطلب منه إعادة توريته عن جزدان المرأة السفلي الذي طلبَه.

هدأتُ أخيراً وقلت له:

- صديقي لم أنم مع امرأة غير زوجتي.

ولا أريد!

8-7-2019

منشورات «دار الياء» «AlIYaa»

10- انتقام

أحبه بشدة،كان قليل الكلام لا يعلق على تفاصيل الحياة، يكتفي بردود أفعال تطفو على ملامحه المرسومة بدقة، يحبني بشدة، وفارقتنا دروب الحياة، من بيته التحقت لمرتين بالثوار في الجبال، مرة وحدي، وثانية مع زوجتي بعد أن ضَّمني لأشهرٍ في بيتهِ. وجدته حياً عقب الاحتلال الأمريكي وعودتي من المنفى، فَأَعدنا وَصلَ محبتنا القديمة. أحلّ في بيتهِ بالكرادة أياماً في زيارتي السنوية، لم يزل حيوياً يعمل بصمتٍ وإخلاصٍ في

تنظيمات الحزب الشيوعي، اصطدم بآرائي الساخرة من حماسته ومن حلمه بالحزب المطفأ منذ زمنٍ بعيد، لا بل فُجِعَ فأنا كنتُ من علامات المقاومة والأمل حسب قوله في زمن الدكتاتور، قلت له:

- "حسين" حزبكَ حلم خسران لا تدوخني دعنا نسكر ونمرح!

كان يتوقف وسط شارع السعدون ونحن في طريقنا إلى بارٍ ليحملق بيّ طويلاً غير مصدقٍ ما أقول فقد خطفونا معاً ونحن في عزّ العمر 1980قبل ثلاثين عاماً "شارع السعدون" وأرونا الويل، لم ننطق بكلمة، فأطلق سراحنا، لتتعمق علاقتنا والقصة.

- "سلام" راح تلخبط وضعي كله!

غَرقتُ في ضحكةٍ عاصفةٍ كشأني وعلقت:

- أي هو عراقنا كله ملخبط!

- يمكن!

قالها بأسف وتوقف، كان يسبقني بخطوات ثلاث،استدار، أصبح بمواجهتي، أمسكني من كَتفيَّ وتأملني بعينيهِ الواسعتين الجاحظتين الجميلتين طويلاً، أحسستهُ يفكر بشأن يشغله ويخجل من البوح به، فقد كنا نعرف بعضنا بالحدس والعيون، سكنتُ بين يديه منتظراً، ظلَّ يحدق بعينيَّ شارداً كأنه يرى مشهداً آخر يعذبه، عاد وبوجهه ذهول فهو يرى ما يقوله صورةً، رسام لنفسه، يرسم في البيت بصمت حتى مماته، تفحصني ثانيةً بتأنٍ قبل أن يقول:

- سلام معقولة يتحول الإنسان إلى قواد ليس من عوز أو

حاجة!

أشعل فضولي:

- سولف لي!

- تعرف بالحصار سافرت إلى دمشق بحثاً عن عمل، وهناك وجدتُ صديقاً أثق بهِ جداً، حكي لي قصة حدثت معه لا تزال تشغل بالي بالرغم من مرور عشرة أعوام!

حدق بعيداً ونفض رأسه كأنه يطرد صوراً تتراءى له.

- أكمل

- أسمع القصة، صديقي هذا الذي أثق به دعاه رجل بغدادي مثقف أصيل حميم محبوب يعرفه من بغداد إلى جلسة شرب في بيته في دمشق القديمة، كان في خريف عمره، وفيما كانا يتحدثان بشؤون الغربة وعذابها فاجأه قائلاً:شوف أريدك الليلة تنيك مرتي!

فتراجع إلى طرف الأريكة غير مصدقٍ، لكن الزوج أصّر مضيفاً:

- بس بشرط گدامي!

حاول الإفلات من المأزق، تصوره كميناً، لكن محاولاته فشلت والزوج أصرَّ مؤكداً بأنه متفق معها وهي ترغب بذلك وما عليه سوى التحضر للممارسة!

كان يصف المشهد بتفصيل رسامٍ لا يترك شاردة وواردة،عيناه الواسعتان تتسعان باضطراب كبحرٍ هائج كلما

تقدم في تصوير الغرفة والمكان والحركة، الأضواء النارية الخافتة، الشبابيك وستائرها المنسدلة، الجدران القديمة، الأبواب العالية نصف المواربة تكشف سماء باحة داخلية عالية محتشدة بالنجوم، أثث حتى جعلني أرى المشهد مجسداً كلوحة رسامٍ عظيمٍ من رسامي القرن التاسع عشر، دخلت الزوجة متوسطة العمر مستعدة تماما، ثوب نوم أحمر خفيف يظهر مفاتنها، حذاء بكعبٍ عال يضرب البلاط بنغمٍ يتردد صداه في فضاء الغرفة، سحبت فراشاً إسفنجياً سميكاً من فوق خزانة الملابس، رتبته في فسحة الغرفة أمام الأريكتين المتجاورتين.

كأنني معهم في تلك الغرفة القديمة وسط حواري دمشق القديمة.

- قمْ.. تنتظرك يا فحل!

أخبرني بأنه تلكأ بالنهوض وجلاً، لكنها شجعته إذ أقبلت نحوه وسحبتهُ من ذراعهِ إلى الفراش الممدود وشرعت في تقبيله بلهفة.

- بلهفة يقول بلهفة يا الله يقول بلهفة

كررها مرات عدة وأضاف:

- أمام أنظار زوجها.. تخيّلْ يا سلام.. تخيل!

كان ينتفض أثناء القص وسط الشارع قبيل دخولنا البار، وكنتُ مستمتعاً في ذروة غير مسبوقة فصديقي يكاد يُجَن من القصة التي يرويها والتي سدت عليه منافذ العقل، مخيلتي الداعرة تصور المشهد من تاريخها المشبوب بالحرمان

والتوهج. كنت أرى الغرفة والرجلين، ولحظة قيام ذاك الفحل الذي دعاه الزوج الخرف الذي ملّ من عشرة زوجته، وهما يتعريان متخلصين من ملابسهما الداخلية، رأيت لحظة الولوج وضرب الكفل وهو يود الغور في الآخر المفتوح الساقين المستقبل شيئه الصلب الحار المحتشد بضيم الحرمان، رأيت ذلك بعيني صديقي الجميل الذي مات من الشرب إذ شَمّعَ كبده وقتله وألقاني في فسحةِ وحشةٍ أبديةٍ أجدُ نفسي فيها وأنا الآن أكتب هذه التجربة.

لم أنس أبداً وجه صديقي وهو يبلغ ذروة القصة مردداً:

- عجيب يا سلام شيء عجيب لا يصدق ولا أستوعبه أبداً!

وقفَ جوار باب البار ليخبرني بما كان يردده زوجها المشرف على العملية، يردد بصرخاتٍ مذبوح لكنه منتشي قافزاً بمكانه على الأريكة:

- حيل.. حيل.. شگ كسها.. شگ كسها!

بصوتٍ مثل وقع زجاج يتكسر، عندها سقطتُ على الرصيفِ من الضحكِ.

- سلام.. تضحك، هو هذا الشيء يضْحْكْ؟

قلت بعد خفوت موجة الضحك:

- "حسين" هذا يكرهها.

- معقولة؟

لم يزل على ذهوله وكأنه يسمع القصة التي يرويها بنفسه أول

مرة، ما جعلني أرتد إلى لغة حواري "حي العصري" ومقاهيه فقلت له:

- هذي أموْته رغبتـه وأكيـد ظلـت تعـيره بالغـافي فـوگ الخصيتين وما يفِزْ!

- ويصير قواد!

- هو ما يفكر مثلك.

- يعني أش يفكر سلومي راح أتجنن.

- يظن أنه ينتقم منها!

26-8-2017

11- أول باب

منذُ طفولته كان يحلم بكسر قيدٍ غير مرئي، يحلم بأجنحة العصافير، فكان يقضي النهار في حقول وبساتين مالك الأرض حيث يعمل أبوه مشغل مضخة ماء، كم كَرَهَ الحجرة الطينية المحاذية لشط الديوانية التي تحتجز أباه مع ضجيج الماكنة حتى المساء، كم كره مالك الأرض وهو يزجره بقسمات قاسية ومفردات خشنة كلما تعطلت المضخة، كان ينزوي خلف جذع نخلة محطما يراقب قسمات أبيه الخائفة المتوسلة، لحظتها كان

يتمنى لو يكسر عصا السيد التي يلوح بها في وجه أبيه، يمتلئ غيضاً، يختنق فينسحب راكضًا شارداً من وجه أبيه المخذول إلى عمق البستان ليضيع بين النخيل وذرات الشمس والفيء والعشب والسواقي الصغيرة حالماً بأرض أخرى غير هذه لا يُحْرَجُ فيها والدهُ.

وبسبب حلم الأجنحة ذاك واجهته الكثير من المتاعب والصعاب، ولم يَجدِ معه التحذير والتهديد إلى أن أُودِعَوه زنزانة في ليلة هادئة وقتها كان لا يتجاوز السادسة عشر بعد.

في سجن "الحلة" أصبحت أصغر الأشياء حلماً.. دفء البيت، ألفة المحلة، غبشة الشوارع، ضجيج فرن الخبر، صياح الديكة، المقاهي، وجه "العبدو" السكران، صبايا الديوانية الجميلات ورجاء بنت الجيران، يفيض شوقاً وحنيناً حينما يغنى "عادل" كل مساء غناءً موحشاً يشبه النواح، ظلّ يعّد السنين بالثواني إلى جاء الفرج مع هزيمة 5 حزيران 1967 ففتحوا أبواب السجن. كان يظن لحظة حشرهم في عربة سيارة السجن المشبكة أنهم سيطلقون سراحهم، لكن وجد نفسه في مديرية الأمن العامة وسط بغداد، في غرفةِ تحقيقٍ معتمةٍ، نفس الغرفة التي أفضت به قبل خمسة أعوام إلى قاعة المحكمة، وحيداً بمواجهة كرسيين وطاولة وضوء قوي مسلط عليه، يحجب وجه المحقق ونبرته الخشنة وهو يكرر:

- أكتب براءتك.. وسنطلق سراحك يا حرامي!

- ...

.. في ليلٍ مظلمٍ تسلل ليكسر شباك ثانوية الديوانية ويحمل

مطبعة المدرسة إلى غرفة بلا أبواب في بيت من طين في طرف "حي العصري".

- أكتب ليس لدينا وقت!

- ...

كان شارداً يستعيد وجه الحاكم العسكري العرفي الذي نطق بالحكم:

- عشر سنين!

والحذاء الذي قُذِفَ من قفص الاتهام ولطمه على وجهه فانهد بالشتائم البذيئة:

- سفلة.. ملحدين.. عملاء.. عشرون سنة.. عشرون".

وضاع صوته وسط نشيد:

- السجن ليس لنا نحن الأباة

السجن للمجرمين الطغاة.

يستعيد الوجوه المنشدة بحماس في الكتلة المتلاحمة والحرس ينهالون عليهم بالعُصيّ البلاستيكية.

- ...

... يا أيها المحقق البليد علامَ إذن تحملت السنين الخمس بلياليها، ونهاراتها، وآلامها وحرماناتها؟

- ...

وتبتسم بسخرية من وجه المحقق عبر الطاولة العارية،

فتهستر صارخاَ

- شيوعي كلب، سافل، إباحي

ضُرِبَ ضرباً مبرحاً حتى الإغماء، وحُجز في سجن "الفضيلية" شهرين آخرين قبل أن يلفظوه إلى شوارع بغداد، فوجد نفسه بمواجهة أفق مفتوح، وشمس متوهجة دون قضبان. خطى مستعجلا نحو " گراج العلاوي" القريب هامساً لنفسه:

- ثلاث ساعات.. ثلاث تفصلني عن ديوانيتي الحبيبة.

* * *

بالرغم من مرور خلال سوق التجار القديم بسقفه المعدني المثقب الصدئ لم يتعرف عليه أحدٌ، قال مع نفسه:

- أيكون شاربي وخشونة بشرتي والشيب المنتشر بفوديّ قد غَيّرَ شكلي؟ يجوز فكل شيء قد تغير في غيابي، هاهي الكثير من الوجوه الغريبة والبيوت الجديدة، البيوت التي هُدَتْ وبُنيت من جديد.

في مدخل شارع طفولته وجدَ أن كل البيوت أعيد بناؤها، فانفصلت عن تلاصقها الحميم ساجنة كتلها وسط حدائق وممرات تدور حول الغرف كالسور، أحسها كأقفاصٍ مغلقةٍ متباعدةٍ، كم حلم في السجن برؤية جدران الشارع بيوته وأبوابها الغائرة في النفس؟! لكن كل شيء تغير، لا "أبو علي" ودكانه الواطئ في طرف الشارع، ولا "حسنية" وقدر الباقلاء، ولا "كاظم عزرة" وطيوره الحائمة دوائر في سماء الحي، ولا "رجاء" رفيقة صباه التي كانت تجلس عصراً أمام باب بيتها

ملفوفةً بعباءتها.

الشارعُ ساكنٌ، غريب، مختلف.

- رجاء.. رجاء طيفكِ كان يدور في أحلام نومي ويقظتي، أين أنتِ الآن؟! يا من لم أنس طوال السنوات الخمس نعومة نهديك الصلبين وأنا أدس كفيّ المرتجفين تحت ثوبك المنزلي الفضفاض وأحررهما من زيقك المفتوح، لم أنسَ لهاثك ولمعان استدارتهما الآسرة تحت شلال النور المتدفق من قرصِ القمرِ المستدير، بقيتُ خمساً ثقال أشم رائحة نهديكِ التي غمرت روحي حينما مرغت أنفي فيهما، وحلمتاك الصغيرتان المتوترتان ظلتا تنبضان وتنتفضان كل ليلة بين أسناني.. أينكِ يا رجاء؟

كان بابهم الجديد مغلقا، جاوزه.. و..

- ما هذا؟

باب بيت أهله منزوع ومركون إلى الجدار!

حثَّ خطاه مقترباً، وَجَمدَ على مسافةِ أمتار من فتحة الباب يتأمل بشرود فضاء الحوش الواسع، أثاث الغرف منتشرة في الفناء.. غرف البيت نصف مهدمة وأكداس الطابوق منثورة حول السدرة الهرمة الشاهقة التي بَدت موحشة في ذلك الغروب الكابي....

- ماذا يجري؟

وأحس بشيءٍ مقبضٍ يثقل أنفاسه، نفثَ حسرةً:

- يا أشياء طفولتي المبعثرة!

كم حَلم بأشياءِ الغرف، بمنقلـةِ الجمـر في ليـالي الشـتاء، بالصور المعلقة على الجدران، بجص الحيطان المتآكل، بالنافذة الصغيرة الواطئة المفتوحة على زقاق جانبي ضيق، بفراشه المنزوي في طرف الغرفة، بالحصير العتيق، بثقوب الزوايا والجدران، برائحة الغرف المهدمة الآن كم ودَّ العبَّ من رائحة تلك الغرف مرة واحدة فيما تبقى من العمر خاصة حينما يصدح "عادل" فيشعل الحنين بصوته الشجي عند حافة المساء.

أوشك على النشيج، لم يزل ساكناً على بعد أمتار من بقايا الباب القديم، شارداً، حزيناً إلى أن ضجَّ سكون الشارع؛ نسوة وزغاريد، صراخ، صبية يخرجون ويدخلون من الأبواب، ثم وجه أمه الهائج المجنون وحضنها الدافئ برائحته الأليفة التي أذهبت من وحشته قليلا.

* * *

ضايقته كثير من الأشياء الـتي أحـس بهـا محصـورة في أقفاص، أولها القفص المعلق بالسدرة.

جلس في باحة البيت جوارها على حصيرٍ عتيقٍ بسطتهُ في ظلِ حائط الجيران العالي وبدأت تروي له ما جرى في غيابه قائلة:

- تزوجت "رجاء" رجلاً يكبرها عشرين عاماً، بَكَتْ كثيراً، بكت طويلا، لكنها صمتتْ أخيراً وذهبتْ معه إلى بغداد!

- محسن قُتِلَ بحرب الشمال.

- ليلى بيت حميدة الخبازة نحروها ليلاً بسطح بيتها!

- العبدو السكران وُجِدَ مقتولا على الرصيف.

كان ينصتُ شارداً مع كائنات الكلام القادمة من فم والدته والتي سوف لن يراها أبداً.

- ...!

- أحكِ يا بني.. أحكِ!

كان مشدوهاً بالبلبل الدائر مثل مجنون وهو يضرب جناحيه بقضبان القفص الخشبي، منصتاً للرفيف العنيف وكأنه صدى روحه اللائبة في مساء السجن. سألها ناطقاً بخفوت من موشك على النوم:

- من حبس البلبل يا أمي؟

- أبوك اشتراه.

- ...

تابع فوران الطائر الدائر في شحوب الغسق بعينين دامعتين. ومن طرف الباحة البعيد أقبل والده مسروراً، وجلس على صف آجر مصفوف وأشار نحو القفص قائلا:

- سيغني بعد دقائق!

حط البلبلُ لافاً قدميه الصغيرتين حول مشبك الخشب الرفيع، وأطلق نغماً حزيناً أخذهُ إلى مساء السجن و"عادل" يحضن قضبان النافذة المطلة على الباحة ويغني بصوته النائح المذبوح يرحل بهم إلى بيوت الأحبة والأزقة والغرف والدفء والسلام المستحيل. يتأرجحون على حافةِ النحيب، يتحاشون التطلع في

وجوه بعضهم البعض، إلا ذلك المفوض القاسي الغليظ الذي يقترب بوجهٍ منتشٍ يصبح تحت ضوء مصباح الباحة الباهت المتأرجح من سقف الرواق، ثمَ يجلس على كرسي يقابل شباك السجن منصتا.

- أسمع.. أسمع.. بِدَه يَقْرَه!

الغسق يلقي ظلالا شاحبة على الغرف المهدمة والقفص.

- أسمع بُويَه!

- ...

- اشتريته بدينارين!

- ...

كان يسرح بعيداً سامعاً صوت السجين النائح يختلط بنواح البلبل في غسق الدار،التفت إلى أبيه الذي أكمل:

- يغني مرتين.. مع طلوع الفجر وقبل نزول الظلام.

- نعم يا أبي.. نعم.. ينوح مرتين.. ينزف مرتين.. في الفجر حينما يستيقظ ويجد نفسهُ في القفص.. وحينما يقبل المساء وباب القفص لا يزال مغلقاً، مثله مثل السجناء، أكثر الأوقات وحشةً على النفسِ هو الفجر والغروب، لحظة استيقاظنا من النوم خارجين من حلمٍ جميلٍ لنجد أنفسنا في قاعات السجن، ولحظة الغروب ونحن نحدق من خلف قضبان النوافذ بذراتِ العتمة تنهمر بصمتٍ جالبةً في لونها أشياء الأحبة وليلاً طويلاً وباباً مقفلاً.

- بويه ما يطربك غِنه البلبل؟

- ..

هتفت بداخلي محزوناً:

- يغمني يا أبي!.

- ليش ساكت بويه؟

- ...

- أسمع يا ولدي.. أسمع.. أسمع.. ساحر يسّكر!

- الساحر.. باب مفتوح!

- يا باب؟

- لا ما كوشي.. ما كوشي!

البلبل ينوح في القفص مغيراً مكان تعلقه المضطرب بين دقيقة وأخرى، والليل يتساقط بصمتٍ على وجهيهما وأحجار البيت وثوب الغروب الكالح والقفص الممتلئ برفيف البلبل الحالم بالبستان.

- أنتبه بويه أنتبه!

مدَّ سبابته بهدوء وحرر العود المحشور في الحيز الضيق بين الباب وإطارها، فتح باب القفص، كور كفه وحشرها داخل القفص، سكن البلبل صامتاً، متوثباً في الزاوية السفلية البعيدة، أمسكه بهدوء وسحب يده، أنتفض بين أصابعه، رفعه إلى مستوى النظر.

- جميل، شكله جميل!

أرخى أصابعه فأنفلت رافاً في عتمة الفناء.

- بويه طار!

تابع بعينيه الدامعتين غبطة الجناحين والبلبل يغيب في فضاء باهت النجوم.

كانون أول 1987

12- لا تشوه ذكرياتك

عشتُ قصة حب مع جارتي "أمل" ثلاث سنوات، كان دارهم المستأجر مقابل دارنا، لكنها اختفت، انتقلوا إلى بغداد، فخلفت بقلبي حسرة أبدية. كنا صغاراً احتدمت قصتنا بين الثانية عشر والخامسة عشر وظلت لوعتها تفور في أعماقي بالرغم من دخولي قصص حب يصعب عدها بقلبي الساذج الطيب الذي يتعلق ويتوهج، وينطفئ ويبكي في كل مرة تنفرط العلاقة، قلبي لا يجوز أبداً، يجدد التعلق وما زال حتى وأنا في

الشيخوخة لكن هذه المرة بالأخيلة المفتوحة كحقول لا نهائية يسرح بها قلبي المسكين. ظلت "أمل" حلم يقظة عاشرني في شتى الظروف فكتبت عنها قصصاً في مدينة نشأتي وبين الثوار وفي معسكرات اللجوء وهنا في منفاي الدنماركي وما زال لدي الكثير، بتعبير أدق وأعمق صارت فتاة المخيلة والأحلام وتلاشي وجودها المادي لتتحول إلى خاطر ومرتع صبا يجلب سروراً خفياً حينما يخطر وفي أي مكان.

عدت إلى العراق بعد زوال الدكتاتور بالاحتلال الأمريكي، زرت الأمكنة القديمة كلها، وعانقت أبناء جلدي وجيراني ومعارفي وأهلي كلهم، صالحهم وطالحهم، فوقعتُ على أثرٍ لها إذ أخبرتني جارتي ورفيقة طفولتي بأنها ساكنة في الديوانية قريب من بيتها بطرف المدينة لأنها تزوجت من معلم، وأكملت غامزة بعينها اليسرى وفي وجهها نشوة:

- ما حَنْ گلبك!

انفجرت بضحكةٍ عاصفةٍ ونشوة خفية أثارتها بتعليقها الغامز، فدنت مني قليلاً، كانت تجلس على الأرض جواري وقالت:

- إذا تريد أتشوفها أدبر لك الأمر وبأي وقت يناسبك!

جارتي الطيبة الجميلة التي كانت تحمل رسائل غرامنا، عانقتني حالما وقع نظرها عليّ في الشارع ثاني يوم وصولي، شدتني بشوق وشغف وحب لا يوصف، ذراعان فيهما مزيج من الشوق والمحبة والحنان والاعتزاز والنقاء. عرفت في الأيام التالية أنها تحولت إلى قوادة محترفة، قلت بكل ود ضاحكاً:

- لا.. لا ما أريد!

- ليش مو هي سِمْعَتْ بيك وتريدْ تشوفَكْ!

- لا ما عندي وقت، سلامي الحار إليها، ويجوز بعدين أشوفها!

عشتُ صراعاً في الأيام المتبقية،لكن نجحت بالتغلب على فضولي الكبير برؤيتها، لم أرد أن أخرب خيالي وحرارة قصصي التي كتبتها وأكتب قصة عن بؤس مآل الحب الأول النقي،أتذكر أنني عملت كل شيء من أجلها حتى إنني سرقت أسئلة امتحان نهاية العام من أختي،مدرستها بمادة الكيمياء، وسلمتها لها في ليلة الامتحان عندما كنا في الصف الثاني المتوسط.

لم أخرب الماضي

لم أرها!

ولم أسأل في الأيام التالية عن حبي الأول جارتي"أمل" صاحبة العينين الواسعتين الخضراوين الناعستين، الناحلة، حالمة الحركة والنظرة، لم أسأل، فبقيتُ ألمسها في خيالي بقدها الناحل ذاك وغضاضة بشرتها وألق الحقول الخضراء في أمداء عينيها وكأنها لم تكبر ولم أكبر مثل أغنية قديمة.

8-12-2018

منشورات «دار الأمان»

13- قلب الشاعر

لم أتدخل حينما وصلتنا رسالة مؤثرة من "أم صمد" زوجة صديقي الشاعر "علي الشباني" في أواسط تسعينيات القرن المنصرم تصف فيها بأسلوب أدبي مؤثر وعفوي اللحظة التي صارحها بأنه متزوج في السر ورزق بصبي، أتذكر وصفها لقسماته الباردة وأثاث غرفة المكتبة والطاولة والصور المعلقة، جمودها وكأن صاعقة ضربتها، فأصابها الخرس لدقائق فأعاد ما قاله، عندها صرخت ونحبت وهبت حافية تركض من الغرفة

حتى حافلة كربلاء لتتمسك بشباك "العباس أبو فاضل" وتشكيه حبيب عمرها الذي خان العهد.

تجنبتُ الحوار مع زوجتي التي تعاطفتْ بشدة معها فكتبت رسالة تضامن لم تطلعني عليها فقدرت أنها ذهبت بعيداً في توصيف قبح الرجال وخياناتهم، وقبل أن تقصد صندوق البريد القريب من بيتنا، سألتني:

- ألا تكتب رسالة لها أو لصديقك تشوف شنو الموضوع؟

أجبتها باقتضاب وفي طرف عيني بسمة:

- لا!

توثقت من لا مبالاتي فعلقت وهي تفتح الباب الخارجي:

- مأساة بعائلة صديق عمره وهو ما مهتم!

أدرك سر إلحاحها، فهي تريد أن تعرفْ وجهة نظري وموقفي مما فعلهُ صديقي، فقصتنا متشابهة، علاقة حب بها تضحيات وانتظار وكفاح تُوِجَ بالزواج، فزوجة صديقي من أقربائه أحبته شاباً غضاً لكنه أشترك في سرقة مطبعة وطبع مع جماعته بيانات ضد الحكومة فاعتقلوا وحكم عليهم بعشرين عام قضى منها خمسة أعوام وهي بانتظاره، وقصتي هي الأخرى تشبه قصته نضال سري والتحاق بالثور وتشرد ثم منفى، جهدت كي أبدو على الحياد لا فرحان ولا حزين وأفشلت كل محاولتها لجري إلى مناقشة الأمر، أتملص بجملةٍ مكثفةٍ

- أولا لكل حياة زوجية أسرارها وثانياً أني بعيد عنهم، صار لي عشرين سنة!

وأميل عليها أينما تكون أُقَبلُها وأخرج في نزهة في الحقول المجاورة، متخيلاً صديقي يقرأ رسالتي التي كتبتها له بعد وصول رسالة زوجته بيومين:

- علي حبيبي أنت صديقي تزوجت واحدة وإلا ألف هههههههههههههههههه

أتيه بين سنابل القمح وصخور التلال، أضحك من القلب مرددا بيت شعري له أوجز فيه محنته مع الأنثى:

(أنه مشبوح ويه طولك عطش

وسنينك ربيع)

فكيف أشرح الأمر لها، والكثير من الأمور ليس لها تفسيراً أو شرحاً أو تعليلاً أو منطقاً، مثل قلب شاعر عميق ومرهف ومجدد مثل صديقي، مضاف إلى خمسة أعوام سجن حُجِزَ عن الحياة بكل ما فيها من شجر وبشر ونساء وشمس وأنهار وفي عزّ شبابه، كنت أخشى أخبارها بطرف من قصص "علي" ومخيلته الضاجة بالنساء اللواتي تَشَيأنَّ لطوال الحرمان، ويتجسد ذلك في نهم عينيه وهما تحملقان بامرأة جميلة، جوعٌ مطلق ودهشة دائمة، حتى أنني مرات ألومه وأطلب منه تخفيف النظرات فينتبه كمن فزَّ من سرحان ويتساءل عن الأمر.

أخشى فأنا لا أختلف عنه لا بالمخيلة ولا بالإحساس ولا بالانجذاب، وعدد لا يحصى من النساء يزدحمن في أخيلتي، يعاشرنَّ شرودي، وهي بدأت تتضايق في السنين الأخير كلما تمعّنتُ النظر بواحدة في الشارع، شاطئ البحر، متجر. أقفز بين

سنابل الحقل في نزهتي الصباحية رائياً في الأفق الخفيض تلك الأيام البكر تنهض وتأخذني إلى سبعينيات الديوانية في القرن المنصرم، صديقي بدأ يستقر ويتذوق طعم حياة خَفَ العوز فيها فقد وجدَّ عملاً كأمين مخزن في مصلحة المبايعات الحكومية، سيبقى فيها حتى التقاعد، وتزوج من حبيبته ابنة عمته وتمكن من استئجار بيت وأصبح أباً، كنا نلتقي في مقهى "صنگر" وسط شارع المواكب، نرتادها عصر كل يوم بعد العودة من مدرستي، انتظره أو ينتظرني لنخوض في السياسة والأدب ونذهب في المساء لمشرب نادي الموظفين.

في يوم من تلك الأيام وكنا نتحاور في مواضيع تتعلق بالشعر، رفع رأسه نحو الرصيف الوسطي وصمت فاغراً فمه ملاحقاً شابة بعباءة سوداء طويلة القامة وبوجه مدور كقمر أبيض مقبلةً من جهة سوق التجار، أقترب مني ودون أن يلتفت نحوي همس:

- سلام شووووووووووفها، بَعَدْ شويه راحْ تِنْفضْ گذلتها لمن أشاكِسْها مِثِلْ مُهره تِجْفِلْ!

وفعلاً ما أن عبرت فتحة ضيقة وصعدت على رصيفٍ قريب حتى نفضت خصلةٍ سوداء تدلت متأرجحة أمام عينيها الواسعتين في اللحظة التي اعتلت فيها الحافة، نظرت نحو "علي" الذي أطلق آهة وتمايل جذعه الأعلى في جلسته، كنتُ أعرف البنت، تلاشت كتلتها في زحام الرصيف وقرص الشمس الدامي الهابط معانقا رؤوس المارة في أفق الشارع. التفت إليه فوجدته يرتجف والدهشة لم تفارق ملامحه المضرجة ولا أدري

هل هي مصبوغة بلون الشمس أم بسطوع شمس الشاعر الدفينة كلما وقعت عيناه على الجمال. أمسكه من ذراعه القريبة وهززته:

- علي أش بيك.. شنو تعرفها!

- لا سلومي هذي يوميه كلما تمر تبهدل حالي!

وليلتها استمتعتُ جدا بأخيلته عنها، كنت أحفزه على الكلام وأثناء إنصاتي للقصص الحسية المثيرة والجميلة، الجنسية والرومانسية التي يخلقها صوراً وسرداً، أكتمل مشروعي الخبيث وأوشكت أن أخرجه، فسألته عن أخيلته عن البيت الذي تسكنه، فأنشد على الفور بيت الحلاج

أن بيتاً أنت ساكنه غير محتاج إلى سرج

وسمعت وصفاً وترتيباً لبيت خيال "علي الشباني" جنة محبة وأفياء، ساحة معارك جنسية وأسرار، دخلت غرفه العجيبة، ليلتفت نحوي ويختم:

- لو تقع بيدي لأخذتها إلى بيوت أحلامي!

توقفت عن السير كنا في طريقنا إلى بيتينا، "أم صمد" تحمل صغيرها وتمشي على مبعدة عشر خطوات خلفنا، قلت له:

- باچر أزورك بيت مهرتك بالمساء!

حملق بي من تحت أهدابه بنظرة استفهام وعدم تصديق:

- تحكي بجد

- أي بجد

أكدت بثقة، فسألني بعد أن أخفض صوته والتفت نحو زوجته:

- زين أنت تعرفها؟

فانفجرت ضاحكاً من شدة الدهشة التي أربكت قسماته وجعلتها تبرق، واشتغلت ملكة الخبث مهندسة الأحداث قلت له:

- لا تسأل باچر راح تدخل بيت مهرتك!

ردد بخفوت:

- خرب بليسك سُلُم أش راح ينيّمني الليلة.

تعمدتُ التأخير في اليوم التالي، وصلت بعد غياب الشمس ونزول المساء، وجدته يرتدي ملابس نظيفة مرتبة وينتشر منه عطراً خفيفاً، لامني:

- فاتتك اليوم لابسة ثوب أحمر وأكو ريح كل دقيقة تنفضها شعلتْ عزيزي

- ...

لم أعلق بشيء وكأني نسيت موضوع البارحة، ألقيت جسدي على الكرسي وأخذت نفساً عميقاً، فنظر نحوي بغضب وقال:

- هاي شنو شو گعدت!

- ليش هو أش عدنه

وهنا أرتعش واهتزَّ جسده مردداً:

- والوعدْ!

قلت بلا مبالاة:

- يا وعد علي!

جلس جواري وهمس:

- تأخذني لبيت المهرة مو هذا الاتفاق!

قالها مكسور الخاطر، وبنبرةٍ متوسلةٍ، لائمة نسياني وبرودتي،وبوجهٍ دبّ في تضاريسه البؤس فكدت أنفجر ضاحكاً وتنفرط الحبكة التي أعددتها بأحكام:

- لا ما نسيت بعد نصف ساعة نتوجه لبيت الحبيب!

مع حلول الظلام انطلقتُ به في جولةٍ طويلةٍ في أزقة الفاضلية ودور نواب الضباط، وحي الجمهوري الشرقي والغربي، وحي العصري وطوال الطريق في الأزقة والشوارع كان يتسأل:

- سلومي صحيح راح أدخلني بيت تتنفس وتفتر به،تبكي وتضحك، ترقص وتغسل يومية، سلومي صحيح!

و "علي" شخصية حذرة جداً ترتاب بكل شيء، وتختبر الصديق إلى أن يثق به وهو يثق بيّ جداً لذا من المستحيل أن يفكر بأني أنصب عليه.

بعد الدوران الطويل عدت به إلى مركز المدينة، ودخلنا محلة "الجديدة" كان ينظر نحوي بين الفينة والأخرى وكأنه يلومني على الدوران الطويل، هو بالحقيقة الوقت الفائض على موعدي، في زقاق من الأزقة الضيقة أوقفته واتجهت نحو باب حديدي مضاء بمصباح معلق فوقه وقرعت الباب، بعد دقيقة انفرجت

الباب وهلهل صديق مشترك لنا معجب جداً بأشعار "علي" ودعانا للدخول فأشرت كي يلتحق بيّ، بينما نادى صديقنا على من في البيت:

- سوو طريق

وهي جملة تعني نساء العائلة كي يستترن، كنتُ مشغولاً بالحديث معه، لكن أتابع بطرف عينيّ قسمات "علي" المخطوفة وهي تحملق في آجر الجدران، ممر البيت المسقوف، باحة البيت الداخلية الواسعة المكشوفة، حوض الحنفية وسطها، وأبواب الغرف المغلقة المتجاورة كغرف نزلٍ. وطوال الجلسة لم أدعه يتكلم، إذ انشغلت في حوارات سياسية ساخنة مع صديقنا تاركاً صديقي يسرح ويجوب ويتلمس بعينيه النهمتين المندهشتين الشبابيك والآجر والجص وأفرشة الأرض والصورة المعلقة على الجدران، ولم يستيقظ إلا حينما أمسكته من ذراعه قائلاً:

- يلّله علي أكيد أجاك جني الشعر!

وانفجرت ضاحكاً.

في طريق عودتنا إلى البيت سألني:

- المهرة شو علاقتها بصاحبنا

قلت له:

- أخته.. "علي"أخته!هههههههههههههه

تلك الليلة سهرني نجوب شوارع الديوانية وقرأ لي قصائده عن سحر الهوى والعشق.

القارئ ينتظر تطورات القصة ومصير العاشق، ما جرى هو لا تطورات ولا تفاصيل، مهرة الشباني اختفت بغتةً من شوارع المدينة فعرفت لاحقاً بأنها تزوجت مثل كل حلوة يسطع نجمها بالمدينة ويخفت بالزواج، و "الشباني" عثر على وجه أخر أسره ووجد به شيئاً أسره بقصائده من وله بكيان الأنثى.

فكيف تريدني أن أتخذ موقفاً من صديقي الذي يشبهني في الأخيلة والعشق والجنون.

9-11-2020

صدر للكاتب

1. **رؤيا اليقين** (قصص)، الطبعة الأولى 1994دار الكنوز الأدبية بيروت ـ لبنان.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
2. **رؤيا الغائب** (رواية)، الطبعة الأولى 1996، دار المدى دمشق ـ سوريا. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
3. **سرير الرمل** (قصص)، الطبعة الأولى 2000، دار حوران دمشق ـ سوريا.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
4. **الإرسي** (رواية)، الطبعة الأولى 2008، دار الدار القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد ـ العراق. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025).
5. **الحياة لحظة** (رواية)، الطبعة الأولى 2010، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ـ مصر ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
6. **في باطن الجحيم** (رواية)، الطبعة الأولى 2013، وزارة الثقافة، بغداد ـ العراق، الترجمة الإنكليزية 2014 دار صافي، الولايات المتحدة الأمريكية. الطبعة الثالثة 2025 ـ دار الرواد المزدهرة بغداد ـ العراق. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
7. **حياة ثقيلة** (رواية)، الطبعة الأولى 2015دار الأدهم القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد، العراق ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
8. **إعدام رسام** (رواية)، 2016دار الأدهم. القاهرة ـ مصر. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
9. **طفلان ضائعان** (قصص)، الطبعة الأولى 2019 دار الدراويش بلغاريا، الطبعة الثانية 2023، دار الدراويش بلغاريا.ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)
10. **كل شيء ضدي** (رواية بجزئين)، 2021دار الدراويش بلغاريا. ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)
11. **قبلة الصباح** (قصص)، 2022، دار الدراويش بلغاريا. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2026)

12. **دونت سبيك أسطب** (رواية) 2023، مؤسسة أبجد العراق. ـ النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025)

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

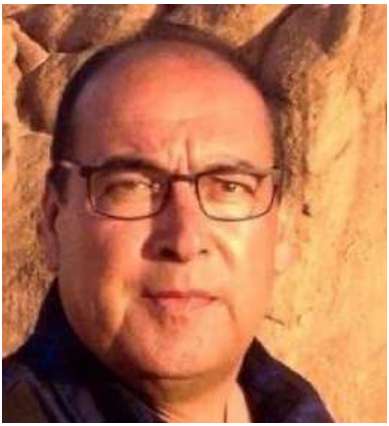

سلام إبراهيم

سلام إبراهيم، روائي عراقي، ولد في 8 كانون الثاني / ديسمبر 1954، في مدينة الديوانية ـ العراق. يقيم حاليا في كوبنهاغن ـ الدانمارك منذ العام 1992، متزوج ولديه ولدان وبنت.

بدأ سلام إبراهيم مساره الحيوي مبكراً في نشاطات سياسية وأدبية، عايش خلالها تحولات العراق الحديث القاسية. تعرض للاعتقال والتعذيب النفسي والجسدي أكثر من أربع مرات بين عامَي 1970 و1980، بسبب مواقفه المعارضة لنظام الحكم آنذاك.

في سياق الحرب العراقية - الإيرانية، تم تجنيده كجندي احتياط إلى جبهات القتال الجنوبية، لكنه اختار الانشقاق والانضمام إلى صفوف أنصار الحزب الشيوعي العراقي في آب / أغسطس 1982. بعد تسلله إلى المدن وعيش حياة مختبئة بين شباط 1983وتشرين

الأول 1983، عاد قسراً إلى وحدته العسكرية، ليُرسل إلى جبهات القتال في البصرة حتى شباط 1985.

واصل مواجهته مع النظام بانضمامه مجدداً إلى الثوار في كردستان، مصطحباً زوجته معه، لكنه اضطر إلى ترك ابنه البكر وراءه. تعرض لجريمة إنسانية جديدة خلال القصف الكيميائي الذي استهدف مقرات المقاومة في "زِيوة" قرب العمادية في 5يونيو 1987، ما أدّى إلى إعاقة رئتيه بنسبة 60%.

في حملة "الأنفال"عام 1988، نزح مع آلاف الكرد إلى تركيا ثم إيران، حيث عاش في مخيمات اللجوء حتى عام 1992، حين استقر أخيراً في الدنمارك، حيث يقيم حتى اليوم.

المسار الأدبي:

بدأ سلام إبراهيم كتابة القصة القصيرة أوائل سبعينيات القرن الماضي، ونُشرت أولى قصصه في صحيفة "التآخي"العراقية (كانون الأول 1975). طوال مسيرته، كتب أكثر من خمسين قصة قصيرة، وتوزّع إنتاجه الأدبي بين القصة القصيرة والرواية والنقد، مع مساهمات في صحف ومجلات عربية دولية مثل "الثقافة الجديدة"، "القدس العربي"، "الحياة"، "السفير"، "الاغتراب الأدبي"، وصحف المعارضة العراقية.